روايات مصرية للجيب
مغامرات س
1
Looloo
www.dvd4arab.com
فتاة حالمة

فى البداية

مرحبًا بكم فى عالمى الصغير ، عالم (نسرين الجبالى) الصغير ، وبطلها الغامض الذى لا يعرفه أحد ..

مرحبًا بكم فى عالمى بكل ما فيه من عقل وجنون وتناغم وتناقضات وأحلام وكوابيس وممكن ومستحيل ..

مرحبًا بكم فى عالم الصحفية المشاغبة المتهورة التى لا يهدأ لها بال إلا بإثارة أكبر قدر ممكن من المشاكل ، والتى مازالت تدرس هوايتها فى كلية (الإعلام) دون أن تنهى سنتها النهائية حتى الآن ..

مرحبًا بكم فى عالمى حيث أبى الدكتور (فاروق الجبالى) صاحب المبضع الجراحى الأشهر فى تخصص المخ والأعصاب ، وحيث خطيبى المغلوب على أمره الرائد (هشام القاضى) الذى يعمل فى المباحث الجنائية ، والذى لولا طيبته الفطرية وحبه الجارف لى لما قدمته ها هنا على أنه خطيبى ، أو ربما حمل التقديم ذلك التعقيب المؤسف (سابقًا) ، وهو حق مكتسب لأى رجل له خطيبة مثلى ، بكل ما أمتلك من مزايا ..

ومزايا !

مرحبًا بكم فى عالمى حيث أصدقائى ومعارفى وجيرانى وبواب عمارتى ، وجرحى القديم فى فقدان أمى وأنا لا أفقه ماهية الحياة !

مرحبًا بكم فى عالمى ، وفى عالمه ..

عالم السيد (س) ..

الرجل الظل ، المتسربل فى الخفاء والعدم ..

الرجل الذى فقد وجهه ، وهويته ، ووجوده ، وتسامى طيفًا يطاردنى فى الحلم مرة وعلى أرض الواقع الواقعية مرات ..

الرجل الذى لا أعرف عنه شيئًا ، والذى يعرف عنى كل شىء ..

الرجل التائه فى متاهات حلزونية تبدأ من النهاية وتنتهى فى البداية ، والذى يتسرب من بين أصابعك كزئبق محترف إذا ما حاولت القبض عليه ، والقبض على الجمر أهون ..

مرحبًا بكم فى عالمى وفى عالمه ، وقد انهار الجدار الفاصل بين العالمين فأضحيا واحدًا ، إيذانًا بمغامرة أخرى جديدة ، تخرج عن المألوف ، ويخرج عنها المألوف !

مرحبًا بكم فى عالمينا ، حيث يتلاشى الوهم فى الحقيقة ، وحيث تندمج الهواجس فى رؤى الأعين الحائرة ، وحيث تولد الأسرار ..

مرحبًا بكم ..

هل أطلت عليكم كعادتى ؟!

عذرًا ، لكن عليكم أن تعتادوا على ثرثرتى ما دمتم ضيوفى ، فقد حاولت مرارًا أن أكبح جماح لسانى المنطلق جوادًا فى البرية ، والنتيجة كما ترون : لا جدوى !

لنبدأ إذن ..

موعدكم اليوم ـ وموعدى ـ مع (رشا) ، تلك الضئيلة الرقيقة السمراء التى تحلم ؛ لتتحول أحلامها إلى واقع كئيب أسود ..

تفضلوا معى ..

لكن ، لحظة ..

نسيت أن أقول شيئاً مهمًا تفرضه علىّ اللياقة وقواعد الذوق :

مرحبًا بكم فى عالمى الصغير !

* * *

١- فتاة تعرفنى ..

أين غير كافيتريا الكلية ؟!

انتهى يوم مرهق من المحاضرات ، يوم حار على مشارف الصيف ، يحتاج لبعض المثلجات وبعض المزاح والثرثرة حول المائدة التى تجمعنا أنا و(رحاب) و(مروة) ..

الامتحانات اقتربت جدًا ، أصبحت مسألة أيام متراصة فى عقد أسابيع قليلة ، لذا فقد لاح التوتر على الوجوه ، وكثرت الكتب والأوراق تحت السواعد المضمومة إلى الصدور ، نريد الانتهاء من التزام الدراسة بسرعة حتى نفرغ لأنواع أخرى من الالتزامات ، ونتحسر بعدها على أيام الجامعة الجميلة التى لم نستمتع بها كما يجب ..

الظلال طويلة على أسفلت الشارع ، الشمس تبدأ رحلتها من منتصف السماء إلى الغرب ؛ لهذا لا يوجد زحام ، فقط بعض العشاق المتناثرين أسفل الأشجار هنا وهناك ، وبعض الجادين المقلبين فى الكتب والأوراق ، والمتجادلين حول توقعات الامتحانات المقتربة ، والنشطات الجائعات للطعام والراحة حول موائد الكافيتريا من أمثالنا ..

قالت (رحاب) وهى تلوك الشطيرة بين أسنانها الطاحنة :

ـ لا أتصور أن هذه المعاناة الطويلة ستنتهى قريبًا ..

ردت (مروة) وهى تشفط بعض المياه الغازية عبر الماصة :

ـ أربع سنوات ليست بالفترة الطويلة إلى هذا الحد ..

قلت أنا وقشر اللب يتطاير عبر فمى :

ـ ربما نفتقد هذه الجلسة بعد أن تنتهى الامتحانات ..

مطت (رحاب) شفتيها قبل أن تقول ، دون أن تتوقف أسنانها على الطحن :

ـ يا لكما من محظوظتين ..

نظرنا إليها ـ أنا و(مروة) ـ فى تساؤل فأردفت مفسّرة :

ـ .. ستتخرجان وقد تحدد مصير كل منكما ..

أشارت إلى (مروة) :

ـ .. أنت يا (مروة) قد ضمن لك ترتيبك المتقدم مكانًا فى هيئة التدريس ..

ثم إلىّ :

ـ .. وأنت الأخرى يا (نسرين) قد ضمنت مكانًا متميزًا فى جريدة (الأربعاء) !

قلت وأنا أهزّ كتفىّ وأنفث بعض القشر المالح :

ـ لا تنسى أننى مازلت تحت التمرين !

قالت وقد عافت شهيتها بقية الشطيرة ، فوضعتها على الطاولة أمامها :

ـ لم أنس ، لكنك تملكين الورقة الرابحة ..

أعرف ماذا تعنى ..

ـ تعنين السيد (س) ؟!

سألتها (مروة) وقد فرغت من عصيرها ، فأومأت (رحاب) برأسها أن نعم قبل أن تقول :

ـ بالتأكيد ، حتى لو لم يضموك إلى طاقم التحرير الأساسى ـ وهو ما أشك فى حدوثه ـ فأى جريدة أخرى سترحب بنشر تحقيقاتك مع هذا البطل الهلامى الغامض ..

قالت (مروة) فى اتزانها الذى يحيلها إلى امرأة ذات مائة عام من الخبرة :

ـ أتفق معك فى هذا ، بل إننى أتساءل ..

ووجهت سؤالها إلىّ :

ـ .. لماذا لم نقرأ تحقيقًا آخر له منذ فترة ؟!

قلت وأنا أمد قبضتى المضمومة نحوهما :

ـ إنه لم يقرر الظهور بعد ..

سألتنى وهى ترفض عرضى الصامت برفع راحتها أمام وجهى :

ـ شكرًا ، متى سيقرر الظهور إذن ؟!

قلت وأنا أتجه بقبضتى المضمومة نحو (رحاب) التى مدت راحتها فى موافقة ضمنية ؛ لأخفف من التصاق أصابعى قليلاً ؛ فيسقط خيط من اللب فى كومة صغيرة :

ـ هو وحده من يقرر هذا ، لا أنا !

ردٌ مللت من كثرة تكراره ، لكن هذه ضريبة أن تكتب وتقرأ ..

ضريبة بسيطة وغير مرهقة ، لكنها مملة إلى حد الإملال !

قالت (رحاب) وهى تنضم إلىّ فى ممارسة الطرقعة ونفث القشور :

ـ سيظهر ، أنا واثقة من أنه سيفعل ..

قالت (مروة) باسمة :

ـ أتمنى أن يفعل بسرعة ، فقد اشتقت لقراءة مغامرة أخرى له على صفحة الحوادث ..

قلت مبتسمة :

ـ أنا الأخرى أتمنى أن يفعل بسرعة ..

عادت (رحاب) تمط شفتيها وتقول :

ـ أنسيتمانى ماذا كنت أقول ..

ثم استطردت :

ـ .. أنا سأتخرج بتقدير منخفض ، وسأجلس فى منزلنا لأشاهد التلفزيون وأنام وأصحو دون أن أنتفع بما درست فى أربع سنوات كاملة !

قالت (مروة) فى بساطة :

ـ ابحثى عن عمل !

ـ كأن الأمر بهذه البساطة ..

قالتها (رحاب) ممتعضة ، فقلت بدورى أحاول بث الحماسة فى عروقها الخاملة :

ـ لن يكون الأمر سهلاً بالطبع ، ولكن .. يمكنك البدء من الآن !

تنهدت (رحاب) قبل أن تشرد بعينيها وتغمغم :

ـ كم أتمنى لو كنت مخطوبة مثلك يا (نسرين) ، حتى

أتشغل فى التحضير للزفاف ، ثم أتشغل بعدها فى إنجاب حفنة من الأطفال الأوغاد أتسلى بتربيتهم وعقابهم على ما يقترفونه من نزوات شيطانية !

قلت وأنا أبتسم لخيالها العجيب :

ـ وكنت أظن أننى غريبة الأطوار ؟!

ـ مساء الخير يا (نسرين) ..

أتانى الصوت المحنىّ من جهة اليسار ، وكنت أنظر إلى (رحاب) الجالسة على يمينى ، فالتفتت فى سرعة لأرى محدثى ..

بالأحرى ، محدثتى ذات الصوت الطفولى ..

ـ عذرًا ، أقصد آنسة (نسرين) !

لم يكن صوتها فقط ، بل إن كل ما فيها ينطق بالطفولة ..

الجسد ضئيل ، القوام نحيل ، البشرة سمراء والجبهة عريضة بارزة ، والشعر أسود خفيف مفروق من منتصف الرأس ومكوم فى كعكة صغيرة إلى الخلف ، العينان واسعتان جدًا حتى إنهما تلتهمان صفحة الوجه ، وتبرزان إلى الخارج فى جحوظ غير ملاحظ ، الفم دقيق والأنف

مستدق والملامح غارقة فى لمسة ضبابية من النعاس ، أما الملابس فقد كانت بسيطة ، قميص وبنطال لهما لون واحد ؛ الوردى ..

ـ نعم ..

قلتها وأنا غير مدركة لأى شىء ..

من تكون هذه الفتاة التى تبدو ـ شكلاً وصوتًا ـ وكأنها ما زالت فى KG2 ؟!

كيف تعرفنى ؟!

ماذا تريد منى ؟!

و..

ـ كنت واثقة من أنها أنتِ !

قالتها الفتاة كاشفة عن صفين من أسنان بيضاء ، ولكن .. دون أن تبتسم !

قلت وقد توقفت عن الطرقعة والتفت :

ـ لست مشهورة إلى هذا الحد ..

قالت :

ـ أعلم ..

ثم نظرت إلى (مروة) و(رحاب) اللتين كانتا تنظران إليها فى تساؤل وشغف، وقالت :

- .. هل من الممكن أن نتبادل الحديث على انفراد ؟

وعادت تنظر نحوى لتجنبهما مشقة الحرج :

- .. لن آخذ من وقتك الكثير ..

عيناها غارقتان فى بحر كونى من الأثير والمستحيل ..

شفتاها لاتبتسمان ..

وجهها صارم جامد لايضحك، وخلف كلماتها الكثير من الـ ..

- سوف نستأذن إذن !

قالتها (مروة) وهى تنهض جاذبة (رحاب) من ساعدها، فسألت وأنا أنظر إليهما :

- هل تنتظرانى لنغادر معًا ؟!

نظرت (مروة) فى ساعتها، وقالت فى أسف :

- أعتقد أننا تأخرنا بما يكفى ..

وقالت (رحاب) فى سمت يشبه الغضب :

- نعم، سنغادر الآن !

كأنهما تعاقبانى على جريمة لم أرتكبها ..

- سلام !

وغابتا خلف الأشجار المواجهة للكافيتيريا، بينما عدت أنا أغوص فى عينى (...) !

لا أعرف اسمها حتى الآن !!

نظرت إليها، كانت قد جلست فى مواجهتى تمامًا، ودون أن تبتسم سألتنى :

- أنتِ صحفية، صحيح ؟!

هذه يمكنها أن تعرفها من أى طالب أو طالبة فى دفعتى ..

سألتها محاولة أن أبدو مهذبة :

- هل تقابلنا مسبقًا ؟!

هزت رأسها نفيًا وتألقت، لكنها لم تفهم مغزى السؤال إذ قالت :

- هذه هى المرة الأولى !

كنت حائرة بين سؤالين، فألقيت فى وجهها بأول ما جال فى خاطرى :

- هل يمكن أن أتشرف بمعرفتك إذن ؟!

مازلت أحاول فى دأب أن أبدو مهذبة ..

- (رشا) ..

قالتها على الفور كأنها كانت تنتظرَ السؤال ، ثم تابعت دون أن يتبدل انفعالها الموحى بالغموض ، الغامض بالإيحاء :

- .. (رشا الدوينى) .. طالبة فى الفرقة الثالثة من كلية الآداب ..

سألتها من باب المضايقة :

- أى قسم ؟!

- لغات شرقية ، شعبة (يونانى) ..

أجابتنى بها دون أن تتضايق ، فألقيت بوجهها بسؤالى الثانى دون البحث عن صياغة تناسبه أكثر :

- هل دلك أحدهم علىّ ؟!

قالت والغموض يشع من كلماتها مميتاً مهلكاً :

- كلا ، اهتديت إليك وحدى ..

سألتها ، ولم أعد مهتمة بأن أبدو أمامها مهذبة إلى هذا الحد :

- وهل يمكننى أن أقدم لك خدمة ما ؟!

قالت لتقتلنى بالمزيد من غموضها :

- بل أنا هنا لأسدى لك خدمة ما ..

انعقد حاجباى وأنا أسألها :

- خدمة من أى نوع ؟!

قالت لتقتلنى بالمزيد من غموضها :

- من النوع الذى تفضلينه لا ريب ..

ثم أجملت بعد تفصيل :

- .. النوع الصحفى !

قلت وقد بدأ الضيق يزحف فوق كلماتى :

- معذرة ، لا أفهم ما ترومين قوله !

قالت ، وخيّل إلىّ أن عينيها تتسعان أكثر :

- سأكون واضحة ومباشرة معك كحد السيف الصارم ، ألا تريدين خبراً تسبقين به زملاءك الصحفيين والصحفيات ؟!

إنها إذن واحدة من هؤلاء الذين يظنون أنفسهم مصدراً من النوع الثقيل ..

واحدة من هؤلاء الذين يميلون على أذنك بعد أن يتلفتوا حولهم فى حذر عشر مرات على الأقل ؛ ليهمسوا لك بعدها بأن ماسورة صرف قد انفجرت أمام منزلهم بالأمس !

أجدهم تحت كل حجر ، وخلف كل باب ، وكلما فتحت الصنبور فوجئت بأحدهم يهبط مع المياه .. إنهم كثيرون حقًا !

لكنى لم أفوّت على نفسى الفرصة ، وتراجعت فى مقعدى قائلة فى أريحية :

ـ بالتأكيد ، أى صحفى يتمنى هذا ..

صمتت لهنيهة خاطفة ، ثم قالت :

ـ (علاء شرف الدين) !

سألتها بعد أن رن الاسم رنينه المعروف فى رأسى :

ـ الممثل الكوميدى الشهير ؟! ماذا عنه ؟!

قالت ، ووجهها يستحيل إلى عينين تحدقان فى كل شىء :

ـ سيموت قريبًا فى حادث سيارة .. قريبًا جدًا !

ارتعدت يداها وهى تنطق بالعبارة ، بينما امتزج حاجباى من فرط الانعقاد وأنا أخاطبها فى استخفاف لا حدود له :

ـ ماذا تقولين ؟! هل كانت هذه إحدى نبوءات العلم الجديد على صفحات مجلة فنية رخيصة أم ماذا ؟!

أغمضت عينيها للحظة ، ثم قالت وهى تنهض :

ـ لقد أخبرتك بما لدى ، يمكنك على الأقل أن تسعى لعمل لقاء صحفى معه ، وتنشرينه بعدها على أنك آخر من قابله !

ـ هل تعتبرين نفسك منجمة ؟!

لم تجبنى ، وسارت بعيدًا ..

فكرت فى الأمر للحظات ، ثم ندت عنى ضحكة تهكم قصيرة ، قبل أن أنفض الأمر برمته عن رأسى ، وأنهض عائدة وحدى للمنزل ..

رأيت ظلى وقد استطال فوق أسفلت الكلية حتى بلغ طوله طولى مرتين على الأقل ، وغمغمت لنفسى فى سخرية :

ـ تبًا لمجانين الشهرة !!

* * *

غروب ، ونسكافيه ، و(عبد الحليم) ، ثم نوم واستيقاظ واستعداد لسهرة طويلة مع المذاكرة ..

حاولت أن أطلب رقم (هشام) لكنه لم يكن فـي المنزل ، ومحموله خارج نطاق الخدمة ..

سيتصل هو بى وليس علىّ إلا الانتظار ..

تذكرت أمرًا ، الليلة موعد عرض فيلم (أيامنا الحلوة) على الشاشة الصغيرة ، ولأننى أكن عشقًا خاصًا لهذا الفيلم بالذات فلا أقل من أن أجلس لأشاهد بعضًا من مشاهده العزيزة على قلبى ..

كنت أعرف أننى إذا ما جلست أمامه فسوف يجرفنى حتى تبرز كلمة (النهاية) البيضاء فوق الشاشة ، بعد أن تلقى (فاتن حمامة) مصرعها تحت وطأة المرض ، وبعد أن أذرف أنا أنهارًا من الدموع الحارة ، لكننى كنت أضعف من أن أقاوم ..

صنعت لنفسى قدحًا آخر من النسكافيه ، وأعددت لنفسى عشاءً خفيفًا ، ثم قبلت صورة أبى المشغول فى مستشفاه ، قبل أن أجلس أمام التلفاز المطفأ وأضغط زر التشغيل على جهاز التحكم عن بعد فى يدى الأخرى ..

حسبما تشير الخريطة المنشورة فى الجريدة اليومية فإن الفيلم قد بدأ منذ عشر دقائق على الأقل ، لا توجد مشكلة

خاصة مع الوضع فى الاعتبار تلك الفقرات الإعلانية المطولة التى تسبق وتلى وتتخلل - باختصار تفسد - أى عمل فنى يعرض على الشاشة !

انفتح التلفاز .. أضاءت شاشته بمشهد مقرب لنجم الكوميديا (علاء شرف الدين) فى مشهد من أحد أفلامه القريبة التى قام فيها بدور البطولة ..

(علاء شرف الدين) ؟!

مصادفة ، بالتأكيد هذه مصادفة ..

عدت أتحقق من الخريطة المنشورة فى الجريدة ، (أيامنا الحلوة) هو فيلم السهرة ..

أين الخطأ إذن ؟!

إنه فى المطبعة بالتأكيد ، أو ربما حدث تعديل فورى فى خريطة الإرسال اليومى لدى التلفزيون ، هذه الأشياء تحدث فى طوارئ مثل ..

رنين الهاتف ..

- آلو..

- ماذا تفعلين ؟!

(هشام) ، خطيبى الذى تحلو له ممارسة خفة الدم فى أى وقت !

ـ إنهم يقولون مساء الخير أولاً !

ـ مساء الخير أولاً !

ـ أين أنت الآن ؟!

ـ فى المباحث ..

وعاد يسألنى :

ـ .. ماذا تفعلين أنت ؟!

قلت وأنا أرشف من النسكافيه ، وأتطلع إلى (علاء شرف الدين) فوق الشاشة :

ـ كنت أحاول مشاهدة التلفاز قليلاً ، لكن محاولتى باءت بفشل ذريع ..

وجدته يسألنى :

ـ ألا تحبين (علاء شرف الدين) أم ماذا ؟!

قلت :

ـ كنت قد هيأت نفسى لمشاهدة فيلم آخر !

سأل :

ـ (ليلتنا الحلوة) ؟! كانوا سيعرضونه قبل أن تتغير الخريطة منذ ساعتين بالضبط ..

سألته بدورى فى حذر :

ـ تتغير ؟! لماذا ؟!

أجابنى على الفور :

ـ تكريمًا له ، لقد لقى مصرعه منذ سويعات قليلة !

صرخت فى فزع :

ـ ماذا ؟!

قال متعاطفًا :

ـ كانت صدمة للجميع ، فهو مازال فى ريعان شبابه .. لقد كان يقود سيارته على طريق (السادس من أكتوبر) عندما انقلبت به السيارة فجأة ، وارتطم رأسه بصخرة .. فشلت كل المحاولات لإسعافه ، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل نقله إلى المستشفى بعربة الإسعاف .. لقد كنت أحقق فى الأمر بنفسى منذ قليل ..

عدت أصرخ :

ـ مستحيل !

سألنى مستغربًا :

ـ ألم يبلغك الخبر ؟! لقد أذاعوه على جميع القنوات المحلية والفضائية منذ ...

صرخت كالمجنونة :

ـ هذا مستحيل .. مستحيل .. مستحيل !

قال والاستغراب يأكله :

ـ ماذا بك يا (نسرين) ؟!

ثم بعض الغيرة التى لا لزوم لها :

ـ .. هل كنت تحبينه إلى هذا الحد ؟!

لم يجد ردًا إلا الصمت ..

ـ .. (نسرين) .. (نسرين) ..

لم يجد ردًا إلا ..

ـ .. هل ما زلت هنا ؟!

الصمت ..

ـ .. (نسرين) ؟! هل فقدت وعيك أم ماذا ؟!

كانت السماعة قد سقطت من يدى ، وأنا أحدق فى التلفاز ببلاهة ..

وأتذكر !

* * *

٢ـ فتاة تحلم ..

الزحام فى أول النهار ..

الدوار يعصف برأسى المثقل ..

سهرت البارحة متأرجحة بين محاولات الاستذكار اليائسة وبين التفكير الحارق فيها ؛ (رشا الدوينى) ونبوءتها الغريبة ..

عشرات الطلبة والطالبات يقفون أمام مدرجات كلية الآداب ، بل مئات ، أذوب بينهم كقطرة زيت فى محيط ، تبتلعنى الوجوه والأصوات وحرارة الجو ، فأعود إلى الكافيتيريا أحمل هموم أفكارى جبالاً فوق كتفىّ ..

لأجدها هناك ..

(رشا الدوينى) تداعب أزرار هاتفها المحمول !

ـ تبحثين عنى بالتأكيد !

قالتها وهى ترفع حقيبتها من فوق مقعد شاغر إلى جوارها ، يبدو أنها قد حجزته لى فى زحام الظهيرة الخانق الزاخر بالوجوه وبالأصوات وبحرارة الجو..

قلت فى ذهول ، وأنا أترك جسدى ليسقط بجوارها :

ـ بالتأكيد ..

منهمكة فى ضغط أزرار المحمول ، ودون أن تنظر إلىّ قالت :

ـ لو أنك استمعتِ إلى حديثى البارحة ..

سألتها متخذة أقصر الطرق بين نقطتين :

ـ كيف عرفت ؟!

ند عن هاتفها المحمول صوت أعرفه ، إنه صوت اصطدام الثعبان بالحائط فى اللعبة الشهيرة التى تحمل اسمه ؛ الثعبان ..

نظرت إلىّ ، وكانت عيناها الجاحظتان حافلتين بالخطوط الحمراء المتعرجة :

ـ لن تصدقينى ..

قالتها بصوت عميق ، بلا قرار ..

قلت وأنا أجاهد للفكاك من أسر عينيها الرهيبتين :

ـ أخبرينى بالحقيقة ، وسوف أصدقك ..

نظرت (رشا) إلى قدميها ، وصمتت طويلاً قبل أن تهمس هازة رأسها يمنة ويسرة :

ـ لن تصدقينى !

قلت دانية بجذعى منها ، وأنا أسألها من باب التذاكى :

- .. هل كنت تعرفين (علاء شرف الدين) معرفة شخصية ؟!

لأول مرة يلوح فوق شفتيها شيء له علاقة بالابتسام ، تلاشى كالطيف قبل أن تقول :

- لم أكن أهوى حتى طريقته فى التمثيل !

- هذا ليس جوابًا على سؤالى ..

قلتها فى مراوغة بينة ، فسارعت تقطع علىّ طريق التمادى باقتضاب باتر :

- لا ، لا أعرفه معرفة شخصية !

سألتها وأنا أتراجع بظهرى ، بعد أن خاب استنتاجى :

- كيف عرفت بأمر حادثته إذن ؟!

أشعت عيناها بضوء خفى ، شاحب ، ممتد ، وهى تقول :

- أعرف أشياء كثيرة ..

وأضافت بعد هنيهة :

- .. أشياء حدثت .. أشياء تحدث .. أشياء ستحدث !

قلت وقد استفزتنى كلماتها إلى حد الاستفزاز :

- كما خمنت .. أنت منجمة إذن ..

نظرت إلىّ وهى تهتف فى عصبية :

- لا أومن بالنبوءات أو العرافين !

صمت ، وخيل إلىّ كأن الزحام من حولنا قد تلاشى ، وكأننا صرنا نجلس فى عالم افتراضى ليس فيه إلا أنا وهى فقط ..

كأن عينيها قد امتصتنى من نفسى ، تمامًا ..

وجدت نفسى أسألها بنبرة واجمة فيها ذهول :

- كيف عرفت إذن ؟!

ووجدتها تقول بصدق ينضح من كل خلجة فى وجهها ، ومن كل رجفة فى جسدها :

- رأيته فى حلم !

صدمنى قولها ، فشلّنى الصمت عن الحركة والتفكير ..

لحظات وبدأت أتدارك الأمر ، هذه الفتاة معتوهة بلاشك :

- عفوًا .. ماذا تقولين ؟!

تأكلنى عيناها وتعتقل نبراتها الطفولية روحى :

ـ قلت لكِ إنكِ لن تصدقينى ..

قلت لها وأنا أضيق عينىّ شكًا واستبعادًا :

ـ ذكرت شيئًا عن الحلم ؟!

تنهدت (رشا) فازدادت حرارة الجو ، وأطرقت لحظات طالت ، قبل أن تقول :

ـ نعم ، تلك مأساتى الحقيقة ..

ـ أى مأساة ؟!

عيناى تزدادان ضيقًا ، وتتحولان إلى شرق أقصى ، بينما هى تتنهد مزيدًا من الحرارة ، قبل أن تجيب :

ـ أنا أحلم .. وأرى فى الأحلام أشياء تتحقق !

(حسن بهلول) فى فيلم (اللعب مع الكبار) ادعى هذا أيضًا ، واتضح أنه كان يستمد أحلامه من سنترال (رمسيس) فى النهاية ..

حرت ماذا أقول ، إنها تسد أمامى جميع المنافذ ، وتسحب هواء الصبر كله فى رئتيها الصغيرتين ..

ـ .. أنت لا تصدقيننى بالطبع ..

قالتها والانبهار يحيل سمرتها اللطيفة سوادًا بلقعًا ، فهززت كتفىّ قائلة :

ـ فى الحقيقة .. الأمر عصىّ على التصديق بالفعل ..

لاح الشيء الذى له علاقة بالابتسام على شفتيها مجددًا ، وهى تقول دون أن يتلاشى سريعًا كالطيف :

ـ الجميع يقولون هذا ..

وتنهدت قبل أن تستطرد :

ـ .. حتى طبيبى النفسى لا يصدقنى ، برغم الأدلة التى أقدمها للجميع !

سألتها وقد تشبثت بما قالت ؛ تشبث الغريق بقشة لن تنجيه من الغرق :

ـ هل تعانين مشكلات نفسية ؟!

نظرت إلىّ وتأملت فى وجهى دون أن تجيبنى ، وأحسست أنا بالجليد يمتد على سلسلة ظهرى كما يحدث فى أفلام الكارتون ..

قالت متجاهلة سؤالى :

- بالأمس جاهدت كى لا أنام ، فكلما نمت داهمتنى كارثـة جديدة فى شكل حلم ..

قلت فى تعاطف حقيقى :

- آثار السهر جلية على عينيك ..

ترقرق زجاج الدموع فى مقلتيها ، قبل أن تقول كأنها لـم تسمعنى :

- لكن مقاومتى ضعفت عند الفجر ، وغلبنى النعاس بدقائق معدودة ..

وجدت نفسى أسألها :

- حلم آخر ؟!

كأننى أصدق ادعاءها الأول !

قالت مغمضة عينيها ، فتصورت أنها قد نامت بالفعل :

- كنت فى مجمع (التحرير) ، وكانت النيران تلتهم كل شىء كوحوش جائعة ..

هذا فيلم آخر للممثل نفسه ، ماذا كان اسمه ؟!

- مجمع (التحرير) ؟!

غمغمت بها فى تساؤل ، وكان الجليد يزحف على أطرافى وعقلى ..

نظرت (رشا) نحوى ، تسألنى بعينيها إن كنت أصدقها ، ولم أدر بطبيعة الحال ماذا أقول لها ، والجليد يزحف .. ويزحف ..

من بعيد رأيت (رحاب) و(مروة) والأولى تهمس للثانيـة بشىء ما ، بالتأكيد تسألها عن سر الصداقة التى تربطنى بهذه الفتاة الغريبة المظهر ..

الفتاة التى تحلم !

* * *

- تصلح قصة درامية من الطراز الأول ..

قالها (هشام) وهو يداعب شاربه ويغوص فى مقعده ، فنظرتُ إلى ساعة الحائط فوق رأسه - التى تشير إلى الثالثة عصرًا - وأنا أقول :

- أهذا رأيك ؟!

قال ضاحكًا فى وثوق الحكيم :

- أنتِ لا تتوقعين منى أن أصدق هذا الهراء بالطبع ..

قلت ملتمسة له العذر :

ـ كلا ، أنا شخصيًا أجد نفسى عاجزة عن تصديقه !

قال واثقًا فى حكمة الضحك :

ـ لكنها قصة طريفة بالفعل .. (فتاة تحلم بمصرع النجم الشاب قبل أن يموت) .. لماذا لا تنشرينها فى عدد هذا الأسبوع ؟!

ـ لأننى لست صحفية طرائف يا عزيزى !

وأضفت :

ـ .. ولأن حدثًا واحدًا لا يعد مقياسًا ، الصدفة يمكنها أن تلعب دورًا .. لننتظر حادث مجمع (التحرير) ونرى !

سألنى فى استمتاع كأنه يشاهد لعبة تليق بطفولته :

ـ هل تنبأتَ بشىء حيال مجمع (التحرير) ؟!

ـ لم أخبرك .. عذرًا ، فذهنى مشتت بشدة !

ثم إنى قلت :

ـ .. لقد حلمت بحريق ينشب فى المجمع ..

سألنى مخفيًا جديته فى الهزل :

ـ متى ؟!

أجبته :

ـ لم تقل شيئًا عن التوقيت !

قال مخفيًا هزله فى الجدية :

ـ لو طبقنا مقياس الحادث السابق فالأمر سيتم فى غضون ساعات قليلة !

قلت وأنا أنهض :

ـ ربما ..

نهض بدوره هاتفًا :

ـ انتظرى .. إلى أين العزم ؟! إنك لم تشربى شيئًا ..

لقد تذكر الآن فقط !

قلت وأنا أغالب إرهاقى ، وأتذكر المهمات المرهقة الأخرى التى علىّ إتمامها الليلة :

ـ فيما بعد ، سأذهب الآن لأنال قسطًا من النوم على فراشى الوثير ..

قال ، وأنا أعرفه عندما يقول ما لا يعنى :

ـ كنت أود دعوتك على الغداء ..

أشحت بيدى :

ـ فيما بعد ، الأيام الآتية كثيرة ..

وقلت قبل أن أغادر :

ـ .. إن حدث أى شىء يتعلق بمجمع (التحرير) فأبلغنى على الفور ..

ـ تقولين إنك ستخلدين للنوم !!

ـ لا يهم ..

قلت فى حزم وعزم ..

ـ أيقظنى إن اقتضى الأمر ..

وملأت عينا (رشا) المدى المغلق أمام عينىّ ..

* * *

غروب ، ونسكافيه ، و(عبد الحليم) ، ثم نوم واستيقاظ واستعداد لسهرة طويلة مع المذاكرة ..

معنى أن (هشام) لم يوقظنى أنه لم يحدث شىء بعد ..

نشرات الأخبار فى الراديو والتلفاز تؤيدان عدم حدوث شىء ..

خدعة ؟!

ـ آلو .. كيف حالك يا (هشام) ؟!

خطأ ؟!

ـ بخير يا حبيبتى .. نمتِ جيدًا ؟!

صدفة ؟!

ـ وطويلاً أخبرنى ، هل من جديد ؟!

مؤامرة ؟!

ـ بشأن ماذا ؟!

مجمع (التحرير) بخير إذن !

ليكن ما يكون ، المهم أن أبى عاد فى تلك الليلة ليقضيها فى المنزل ، ولأنه نادرًا ما يفعلها فقد كان يومًا خاصًا جدًا ..

جمعتنا مائدة العشاء ، أعددته بنفسى معتمدة على خبرة ضئيلة فى شئون عالم المطبخ ..

تبادلنا الحديث على المائدة فى ألف شأن وشأن .. سألنى عن دراستى وسألته عن عمله .. سألنى عن تحقيقاتى المتوقفة منذ فترة ، وسألته إن كان يحتاج إلى ملابس

جديدة .. سألنى عن آخر قراءاتى الأدبية وسألته عن آخر التطورات الإكلينيكية فى جراحة المخ والأعصاب ..

يا لسعادتى اللانهائية ، ويا للألعاب النارية المضيئة فى فضائى الجميل ..

شردت قبل أن نفرغ من العشاء بقليل ، فسألنى :

- هل لى أن أكون فضوليًا وأتساءل : أين عقلك الآن ؟!

قالها ضاحكًا فبادلته الضحك ، ثم قلت :

- فى الأحلام !

لم تخبُ ضحكته وهو يسألنى فى تقطيبة مصطنعة :

- الأحلام ؟!

أومأت بالإيجاب :

- نعم يا أبى ، الأحلام التى تتحقق ..

واستدركت لئلا يفهم كلامى على غير محمله :

- .. أعنى المعنى الحرفى للكلمة لا المجازى ، كأن أحلم بأن شخصًا قد سقط من النافذة وأصحو من النوم ليسقط نفس الشخص بعدها من النافذة بالفعل ..

- الـ Precognitive Dreams ؟!

لم أتابع ما قال ، فسألت فى بلاهة :

- ماذا ؟!

قال مترجمًا وهو يبتسم فى أبوة أعشقها :

- الأحلام التنبؤية ..

أعجبنى التعبير فهتفت فى حماسة :

- نعم ، هذه تسمية موفقة ..

قال وهو يفرغ من طعامه :

- إنها أحد أنواع الأحلام الميتافيزيقية ، والتى مازال العلماء يجرون عليها التجارب داخل المعامل دون أن يتوصلوا إلى نتيجة تريحهم ..

هتفت بنفس الحماسة :

- لكنها حقيقة واقعة ..

- هذه رؤية خاطئة فلسفيًا وتحوى تناقضًا بينًا ؛ فالأحلام لن تكون حقيقة واقعة أبدًا !

- لكن ..

وماتت الكلمات على شفتى ، فاقترب منى ليربت على كتفى بحنان وهو يقول :

ـ للأسف لم أقرأ عن الأحلام الميتافيزيقية كثيرًا ، لكنى يمكن أن أدلك على من يفيدك فى أمر كهذا ..

كنت أسمعه بنصف أذن ، غارقة فى خواطرى ، فضحك نصف ضحكة بدوره ، وقال :

ـ .. أعلم أن صغيرتى العنيدة لن تهدأ حتى تعرف ماتريد ..

تكلم بعدها كثيرًا ، لكنى لم أسمع من كلامه شيئًا ..

عذرًا يا أبى ، يبدو أنى قد ورثت منك حبًا للعمل ينسينى كل ماسواه ..

حتى أنت !

* * *

٢ـ فتاة تقول الصدق ..

مرت أيام كثيرة لا أذكر عددها ، نسيت خلالها كل شىء عن (رشا) وأحلامها ورغبتى المستعرة فى تقصى الأمر حتى أمسك قلبه بيدى العارية ..

انغمست فى الاستذكار والانتظام فى المحاضرات والسكاشن ، ومرت أيام كثيرة لا أذكر عددها ، لكنها لم تكن طويلة إلى درجة تبلغ بداية الامتحانات ..

أيام كثيرة لا أذكر عددها ، حتى أتى النهار الذى حدثنى فيه (هشام) وأنا غائصة بين أكوام الكتب والمذكرات والأوراق والأقلام والكشاكيل والنظريات والأسئلة :

ـ ماذا تفعلين ؟!

ـ متى تنوى أن تحيينى دون أن أطلب منك ذلك ؟!

ـ عندما تتوقفين عن طلب ذلك !

ـ أنت رائق البال وأنا فى هم وبيل ..

قلتها وقد انتهزت فرصة تحدثه لأعد لنفسى قدحًا من النسكافيه ، هذه ميزة الهواتف اللاسلكية التى تعمل دون أسلاك !

- من قال إننى رائق البال ؟!

سألته وأنا أراقب اللبن فوق الموقد :

- لو لم تكن لما حدثتنى ..

- أنتِ طلبتِ منى ذلك ..

حملت اللبن وصببته داخل الكوب الزجاجى الذى عجنت بداخله النسكافيه منذ قليل ، وأنا أقول مبتسمة :

- حقًا ؟! لا أذكر أننى فعلت !

سمعته يقول جادًا ، وهى إحدى أساليبه فى الدعابة :

- ربما ليس اليوم ، لكنى أذكر أن هذا كان منذ وقت قريب ..

قلبت النسكافيه داخل الكوب وأنا أجاريه فى دعاباته :

- العام الماضى مثلاً ؟!

قال بنفس الجدية التى أعلم أنها ستنقلب هزلاً بعد قليل :

- كلا ، اليوم الذى أتيتِ فيه إلى المكتب لتخبرينى بأمر صاحبتك التى تحلم !

تجمدت يدى على الملعقة وهى تقلب النسكافيه ، وبلغ قلبى حنجرتى إذ قلت :

- ماذا تقصد ؟!

قال على الفور :

- مجمع (التحرير) !

غمغمت أسأله وقلبى يكاد يقفز فوق حنجرتى :

- ماذا عنه ؟!

زفر فى عمق ، قبل أن يأتينى صوته بجدية لم تتحول إلى هزل :

- هناك حريق نشب فى داخله منذ قليل ، وتمت السيطرة عليه بسرعة ..

هرولت نحو التلفاز وأنا لا أقوى على التكلم ، ولاحقنى (هشام) بحديثه العميق عبر اللاسلكى :

- .. لن يذيعوا الخبر فى وسائل الإعلام خوفًا من حالة ذعر فى أكثر مناطق العاصمة حيوية ، خاصة وأن المسألة لم تستغرق كثيرًا وقد مرت بسلام ..

توقفت يدى قبل أن أضغط زر تشغيل التلفاز بأنملة ، وحاولت السيطرة على أنفاسى وأنا أقول :

- تحقق الحلم إذن !

عاد يزفر لتحترق السماعة عند أذنى ، قبل أن يقول :

- ربما كانت مصادفة أخرى ..

قلت وأنا ألهث عائدة إلى حجرتى :

ـ كلا ، المصادفات لا تقع أكثر من مرة ..

تردد قبل أن يقول :

ـ إنهما مرتان فحسب ..

قلت وأنا أنظر إلى ملابسى المعلقة فوق مشجب قريب :

ـ من يستطيع الجزم بهذا يا (هشام) ؟!

لم يجبنى ، وظللت أنا أحدق فى ملابسى ، ملابس الخروج ..

ـ .. من ؟!

* * *

لم أكن أنوى الذهاب إلى الجامعة اليوم ، لكن هذا الحريق غير أشياء كثيرة ..

مرتدية ملابس الخروج التى كانت معلقة منذ قليل فوق المشجب اجتزت بوابة الجامعة ، ويممت شطر كلية الآداب ؛ لأتوقف أمام مدرجات قسم اللغات الشرقية ..

بحثت عنها بعينى وسط زحام الوجوه والأصوات وحرارة الجو ، لكنى لم أجد لها أثرًا ..

عدت إلى الكافيتريا وأنا أفكر فى أنها ربما كانت تنتظرنى هناك كالمرة السابقة ، لكن الكافيتريا التى كانت مزدحمة بوجوه وأصوات وحرارة لم تكن تحويها ..

فكرت فى أن أنتظرها قليلاً ها هنا ، فربما تظهر بعد قليل ، لكنى سرعان ما لُمت نفسى على تفكيرى الساذج ، وقررت أن أذهب للبحث عنها بنفسى ..

كم يومًا مرت منذ قابلتها لآخر مرة ؟!

عشرة أيام تقريبًا ، ربما تزيد أو تقل يومًا ..

مدرجات كلية الآداب مرة أخرى ، وأنا أرنو نحو تجمع من الطلبة والطالبات فى ركن قريب ، سائلة فى تأدب :

ـ من فضلكم ..

تتجه العيون إلىّ ، وتسألنى فى صمت عمّا أريد ..

ـ .. كنت أريد السؤال عن طالبة فى قسم (اليونانى) ..

تطوعت إحدى الواقفات قائلة :

ـ أنا طالبة فى قسم (اليونانى) ..

ابتسمت لها ممتنة وأنا أقول :

- هذا رائع ، تعرفين بالتأكيد (رشا الدوينى) ..

انثالت عاصفة من الازدراء الواقفين جميعًا ، وأشاحت عنى المتطوعة هاتفة :

- لا أعرف عنها شيئًا ..

ثم أعطونى ظهورهم وأقفيتهم ، فتحاملت على الإحراج البالغ الذى انتابنى وابتعدت أجرجر أذيال الكسوف ..

تجمع آخر ..

- .. (رشا الدوينى) ؟!

- ياللشؤم ، كان اليوم منذرًا بالخير حتى الآن !

تجمع آخر ..

- .. (رشا الدوينى) ؟!

- تلك الفتاة المنطوية غريبة الأطوار ؟! لم أرها منذ فترة طويلة ، لحسن حظى !

وآخر ..

- .. (رشا الدوينى) ؟!

- اغربى عن وجهى !

وأخير ..

- .. (رشا الدوينى) ؟!

- مختفية منذ عشرة أيام تقريبًا !

يدهشنى الرد المختلف عن القطيع :

- تعرفها ؟!

أسأل محدثى ، شاب أسمر ناعم الشعر رث الثياب ، فيجيبنى حاجبًا ضوء الشمس عن عينيه براحته :

- كزميلة فى نفس القسم ليس إلا ..

- لا يبدو أنك تتشاءم منها كالآخرين ..

يقول :

- أنا أشفق على المنطوين المغلوبين على أمورهم مثلى !

ويبتعد ..

ليس أمامى إلا البحث فى مكان واحد ؛ شئون الطلبة ..

- أريد عنوان الطالبة (رشا الدوينى) من فضلك ..

نظرت الموظفة نحوى فى شك :

- لماذا ؟!

تلعثمت للحظة :

ـ فى الـ .. فى الحقيقة ..

فهاجمتنى على الفور :

ـ إخراج بيانات عن أى طالب ممنوع ويعرضنى للمساءلة ..

فتمالكت نفسى وشننت هجومى المنظم :

ـ حتى لو كان الهدف إنسانيًا بحتًا ؟!

نظرت الموظفة نحوى فى شك ، وتساؤل ..

ـ .. إنها مريضة ، وبصفتى عضوة فى (اتحاد الطلبة) كنت أريد أن نتوجه لها فى تجمع من الزملاء والزميلات لنشاركها محنتها وجدانيًا على الأقل ..

تمحى الشك ، وزال التساؤل ، وبرز العنوان ..

الكذب الأبيض مفيد أحيانًا !

* * *

هبطت من عربة مترو الأنفاق المخصصة للسيدات فى محطة (وادى حوف) ..

أرهقنى البحث عن العنوان ، ولم أصل إلا مع أذان العصر ..

فتحت لى الباب القديم ذا المصراعين امرأة متشحة بالسواد ، وبعض الشعيرات البيضاء تتخلل سواد شعرها المشعث ، ووجهها محزون مكلوم فى انكسار ..

ـ مساء الخير ..

قلتها على استحياء ، وأتانى الرد منها باردًا بلا روح :

ـ مساء النور .. من تريدين ؟!

قلت على الفور :

ـ (رشا الدوينى) !

أذاب الاستغراب بعض الحزن الذى جمد ملامح المرأة ، وهى تسألنى :

ـ ومن تكونين ؟!

قلت على الفور مرة أخرى :

ـ زميلتها فى الكلية ..

سألتنى مستيقنة :

ـ زميلتها ؟!

وقلت على الفور مرة ثالثة :

- فى الكلية !

سارعت المرأة وقد تسلل بعض الانشراح إلى ملامحها بفتح الباب ، ورحبت بى أيما ترحيب وهى تدعونى إلى الدخول :

- تفضلى يا حبيبتى .. خطوة عزيزة .. زارنا النبى ..

خطوت إلى داخل الشقة المتواضعة ، وجلت بعينى فى البلاط السنجابى والأثاث القديم والحوائط ذات الطلاء الكالح ؛ لتستوقف نظرتى صورة مؤطرة فى الصدر تمثل رجلاً يخالط البياض سواد شعره ، وملامحه تشير إلى أبوته الواضحة لـ (رشا) ، بنفس القدر الذى تشير به ملامح هذه المرأة المتشحة بالسواد إلى أمومتها لنفس الشخص !

- .. معذرة فلم تزرنا صديقة لـ (رشا) منذ وقت طويل ..

وفى ركن الصورة المؤطرة صورة أخرى صغيرة لفتى على أعتاب العشرينات يضحك إلى جوار دراجته السوداء ، تشير ملامحه إلى انتمائه الأكيد لنفس الأسرة ذات الملامح والسمات المميزة المشتركة ..

- .. طويل جداً ..

رائحة الصابون التى تفوح من المرأة ، وبقع الماء المتناثرة على ثوبها ، بالإضافة إلى هدير محرك الغسالة الصادر من الحمام الصغير تؤكد كلها على أن المرأة كانت تغسل !

- .. صحيح ، ماذا تشربين ؟! شاى؟ أم حاجة ساقعة ؟!

اعتذرت بسؤالى المباشر :

- أين (رشا) ؟!

عاد الحزن يكلل ملامح المرأة ، وهى تشير إلى باب قريب موصد :

- فى غرفتها ..

سألتها :

- ولماذا لا تأتى إلى الجامعة منذ أكثر من عشرة أيام ؟!

فأجابت :

- لأنها مريضة ، مريضة جداً ..

وبكت :

- .. مريضة إلى حد أنها حاولت قتل نفسها !

شهقتُ :

- أقدمت على الانتحار ؟!

نهنهت المرأة المتشحة بالسواد وهى تقول :

- تريد أن تتركنى وحدى بعد موت أبيها وأخيها !

انعكست صورتى على زجاج الصورة المؤطرة وأنا أشير إليها سائلة :

- هذان ؟!

كفكفت المرأة دمعها بطرف ثوبها :

- أجل ، قضاء الله الذى لا راد له ..

التفت أحاصرها بالمزيد من أسئلتى :

- ولماذا حاولت (رشا) الانتحار ؟!

عادت تبكى :

- حالها منذ مات الرجلان لا يسر عدواً ولا حبيبًا ، وأدوية العلاج النفسى تضرها بأكثر مما تنفعها ..

كأن المرأة وجدت متنفسًا للكبت الذى تعانيه فى شخصى ، وكأنى لمحت فيها طيف الأمومة البعيد ، فأخذت أربت على كتفها مانعة نفسى من احتضانها بصعوبة ..

- .. بالأمس أفاقت من نومها مفزوعة ، كما يحدث فى الفترات الأخيرة كثيرًا ، وصرخت كالمجانين وهى تهم بإلقاء نفسها من نافذة حجرتها .. لولا لحاقى بها فى اللحظة الأخيرة لقضى الأمر ..

قلت وأنا أمنع نفسى من مشاركتها فى البكاء بنفس الصعوبة :

- أريد أن أراها من فضلك يا أمى !

عادت تكفكف دموعها ، وتقدمتنى فاتحة باب الغرفة :

- تفضلى يا ابنتى ..

دلفت إلى الحجرة لأشم رائحة الموت القوية ..

النافذة موصدة بإحكام ، الكتب والأوراق مبعثرة فى كل الأنحاء ، رسوم بالقلم الرصاص فوق الجدران تمثل الرعب فى أكثر أشكاله بدائية ووحشية ، أدوية لا حصر لها فوق المكتب

والمنضدة والخوان ، وعلى السرير يتمدد جسد (رشا) النحيل ، (رشا) التى تشق عصا الطاعة على حياتها البائسة ، والتى تتنفس بصعوبة ..

أقترب منها ، وألمس يديها وقدميها المربوطة بالقماش الأبيض إلى قوائم السرير ..

- .. استعنت بالجيران حتى نسيطر عليها ، ونربطها كما ترين ..

وجاهدت المرأة لكبح المزيد من دموعها :

- .. لم أكن أريد أن يحدث كل هذا .. لم يكن أحد يريد ..

أنظر إلى وجه (رشا) الشاحب كأنه وجه (دراكيولا) ، وتنظر لى ..

لم تكن نائمة ، مازالت تقاوم النوم بكل ما يحمله من رؤى كابوسية اختصها بها وحدها ..

أجلس إلى جوارها وأهمس لها :

- هذا أنا يا (رشا) ..

يأتينى صوتها الطفولى مبحوحًا ، وعيناها ثابتتان :

- أتيتِ بعد الحريق ؟!

أشعر بالذنب ، وأقول :

- أتيت لأعرف الحقيقة ..

- أنت لا تصدقيننى ..

وتلتفت بوجهها إلى الناحية الأخرى فى يأس :

- .. لا أحد يصدقنى ..

- بل أصدقك ..

أقولها فى صدق ، لكنها لا تلتفت نحوى ..

- بل تصدقين ما حدث ، ما رأيته بعينك .. ولا تصدقيننى أنا !

- أصدق أنك قد رأيتِ ما رأيتِ فى حلم ..

تلتفت نحوى ، وتملأ عينيها الذابلتين كزهرتى ياسمين من وجهى ..

- قبل أن يموت أبى بيومين رأيت حلمًا ..

تفتح لى (رشا) صدرها ، وأنا أستمع إليها بكل جوارحى :

- .. رأيته واقفًا بين العمال ، يصدر أوامره لهم ، عندما

سقطت الكتلة الإسمنتية فوق رأسه ، ليلقى مصرعه البشع فى الحال !

أساعدها هامسة :

– وتحقق الحلم ..

زجاج الدمع فى مقلتين متعبتين ، ثم :

– بحذافيره ، فى نفس الموقع الذى رأيته واقفًا فيه فى الحلم .. كيف لم أحذره ؟! كيف ؟!

تواتينى الجرأة لكى أسألها :

– وأخوك ؟!

تبلع ريقها ، وتتنفس متأملة فى صورته التى استحضرتها فى خيالها ، ثم :

– مات فى اليوم الذى حلمت فيه بأن السيارة (البيجو) التى سوف تقله إلى (الإسكندرية) سوف تنقلب ، ولن يخرج من الحادث سليمًا ..

الألم يعصر مهجتى كالبرتقالة ، فماذا عنها يا ترى ؟!

– لستِ مسئولة عن أى شىء من هذا يا عزيزتى ..

تقول فى تهكم كالعلقم :

– هذا ما واظب طبيبى على قوله بانتظام ، مع كل مضادات الاكتئاب اللعينة التى تحيل حياتى جحيمًا .. (تشير إلى الأدوية المتناثرة هنا وهناك) لكننى أعرف الحقيقة جيدًا .. أعرف أننى لعنة على كل من يعرفنى ، وأننى طائر الشؤم المحلق بجناحين من دم أسود فوق رءوس الأشهاد ..

أمسد شعرها بيدى ، وأقول فى حنان لأجهل مصدره :

– أنت تشاهدين ما يحدث فقط ، ولا تتسببين فى وقوعه بأى حال !

تقول وقد اتسعت عيناها المحدقتان فى اللاشىء :

– أنا الشر فى أنقى صوره ، الشر المطلق الذى يصيب كل من يقترب منه بالهلاك ..

– لا تقولى هذا ، فأنا لن أصدقك مهما ظللتِ تقولينه !

تنظر نحوى ، ثم :

– بالأمس حلمت بكِ !

تتداعى الذكرى سريعة فى ذهنى ، هذا عنوان قصة

لـ (بهاء طاهر) ، يروى فيها عن سويسرية قتلها حلمها بمصرى يعيش بجوارها ..

تتداعى الذكرى ، ويتطابق المعنى تقريبًا ..

أسألها فى محاولة لقلب الموضوع إلى دعابة :

ـ ألهذا حاولتِ الانتحار ؟!

كوميديا سوداء !

تتجاهل السؤال والدعابة والكوميديا والسواد ، وتقول :

ـ أحلامى تداهمنى فى هيئة لقطات سريعة متلاحقة ، مثل فيلم سينمائى قصير للغاية ..

ـ (فوتو مونتاج) ..

أقولها فى حذلقة ..

ـ .. يطلقون هذا المصطلح على المشاهد السريعة المتلاحقة فى لغة السينما ..

ثم أسأل فى فضول قاتل :

ـ .. هل كان حلمًا سعيدًا ؟!

ـ بل كابوسًا ..

تقولها (رشا) دون انفعال ، كأنها تسرد حقيقة لا تقبل الجدل ..

ـ .. أنا لا أحلم بغير الكوابيس ..

أقول بنفس الفضول الذى يقتل :

ـ سأسمعه منكِ ..

ـ ربما لا يسعدك هذا !

ـ سأسمعه منكِ فى كل الأحوال ..

قالت :

ـ اللقطة الأولى : تجلسين بجوارى فى هذه الحجرة ، تستمعين إلىّ وأنا أقص عليك تفاصيل الحلم المريع ..

اللقطة الثانية : تقفين فى منزلك ، وسط أكوام من الكتب والأوراق ، تتحدثين فى هاتف بملامح تخفق بالقلق وتنطق بالتوتر ..

اللقطة الثالثة : ليل ، شارع مظلم ، رجلان يقتتلان عندما تظهرين كالضوء الساطع ، فيهرب أحدهما ويقضى الآخر نحبه على الأسفلت ..

وتوقفت ، فسألتها :

ـ ألا توجد لقطة رابعة ؟!

أجابت :

ـ استيقظت قبل أن يتم ، ولن أنام مرة أخرى حتى لا أرى نهايته ، فلن أحب رؤيتها أبدًا ..

ونظرت إلىّ :

ـ .. لن تحبى معرفة نهايات أحلامى الكابوسية أبدًا ..

وأكدت ناظرة نحو النافذة الموصدة فى إحكام :

ـ .. أبدًا !

* * *

٤ـ فتاة .. وجريمة ..

أرهقتنى الرؤى وأرقتنى ليال طوال ..

نسيت المذاكرة ورعب العد التنازلى نحو الامتحانات ، واحتل فكرى وتفكيرى شىء واحد مدون عليه اسم (رشا الدوينى) ..

لابد أن أفهم وأن أسعى نحو الحقيقة ، حقيقة ذلك الكيان الغامض الذى يحتلنا ونحن نائمون ؛ لندخل إلى عوالمه السحرية بغير إرادتنا ..

قرأت كثيرًا وأبحرت عبر شبكة المعلومات ساعات طويلة ..

(.. يقضى الشخص العادى حوالى ثلث عمره فى النوم ، أى أننا لو افترضنا أن إنسانًا عاديًا ينام ٨ ساعات فى اليوم عاش مدة ٧٥ عامًا ، فقد قضى هذا الإنسان قرابة الـ ٢٥ عامًا نائمًا منها ١٠ أعوام على الأقل فى أحلام !)

معلومة تحمل الخطأ واضحًا فى طياتها لكنها تستخدم لجذب الانتباه ، الغث فى عالم الإنترنت يفوق السمين كثيرًا ..

(.. كل الناس يحلمون فى أثناء نومهم بلا استثناء ، والأحلام تحدث فى أثناء مرحلة حركة العين السريعة فى أثناء النوم ، التى تحدث مرة كل ١٠٠ دقيقة تقريبًا ، وتستمر من بضع دقائق حتى الساعة إلا الربع ..

جميعنا نحلم ، لكننا فى المعتاد نصحو دون أن نتذكر شيئًا عن أحلامنا ، ربما يرجع ذلك لشىء يتعلق بطبيعة النوم نفسه ، تلك الطبيعة التى تتأثر بسهولة بأى مؤثر خارجى كالصوت والضوء ودرجة الحرارة والأدوية والطعام والشراب و ..)

كل هذا جميل ، لكنها معلومات جافة لا تفسر شيئًا مما أبحث عن تفسير له ..

(.. فائدة الأحلام أنها تمد الحالم بالمعرفة الشاملة عن مشاعره وأفكاره وسلوكياته ودوافعه وقيمه ، والكثير من المبدعين يحصلون على أفكارهم الإبداعية من عالم الأحلام ، حتى إن بعض النظريات الحديثة تفترض أن العملية الإبداعية نفسها نوع من الحلم فى حالة اليقظة ، ويسعى فارضو هذه النظريات إلى التحقق منها بالتجارب المعملية ..)

بحثت وبحثت ، هبطت إلى المكتبات الكبرى وابتعت أكوامًا

من الكتب والمراجع ، زرت سور (الأزبكية) وعدت بأكوام أخرى من الكتب والأتربة والحشرات ، زرت مكتبات صديقاتى وأتيت على أى عنوان يحمل فى طياته إشارة لعالم الأحلام ..

لا بد أن أعثر على الحقيقة ..

لا بد ..

(.. ذات مرة ، حلمت ــ أنا تشوانج تسو ــ بأنى فراشة تخفق بجناحيها الملونين هنا وهناك ، فراشة منسجمة مع عالمها ومتسقة من حيث المقاصد والغايات .. لم أع غير كونى فراشة تتبع أهواءها ، غير مدرك تمامًا لطبيعتى كإنسان .. فجأة أفقت ، وظللت راقدًا بعد أن استرددت نفسى ثانية ، والآن أنا لا أدرى إن كنت إنسانًا يحلم بأنه فراشة ، أم فراشة تحلم بأنها إنسان !)

هذا نص صينى قديم أثار حيرتى ، وقلب كيانى المقلوب ..

أيام وأيام بين الكتب ، تعمم شعورى بالزمن وبالمكان وبالأبعاد جميعها ، من (فرويد) وتفسيراته الغريبة ، إلى (برجسون) ومنطقه المتزن ، إلى (يونج) الثائر على المفاهيم التقليدية المفتون بالسحر وما وراء الطبيعة ، إلى (ابن سيرين) حجة تفسير الرؤيا العربى ..

أيام وأيام ..

حتى (هاملت) خاف من قتل نفسه حتى لا تهاجمه الكوابيس فى رحلة الموت ؛ الذى هو نوم طويل ، طويل ..

(.. أن أموت .. أنام ، ولا شىء بعد .. وبالنوم قد تخلص من لوعة القلب ومما أورثته الحياة لهذا الجسد من آلاف الدواهى .. إنها جماع للذة نشتهيها بحرقة .. أن نموت .. أن ننام .. لكن قد نحلم ، تلك هى العقبة .. فإن ما قد يعرض لنا من أحلام فى هجعة الموت بعد أن نكون قد طرحنا عنا هذه الأغلال الفانية ، لابد أن يدفعنا إلى التردد ..)

هذا هو (شكسبير) الذى سبق عقله زمنه بسنين بعيدة ..

ماذا عن المصطلح الذى استخدمه أبى ؟!

الأحلام التنبؤية ؟!

(.. إنها نوع من الأحلام ذات الطبيعة الخاصة ، مثل أحلام الاختطاف بوساطة الغرباء ، أو تجارب الخروج من الجسد أو الاقتراب من الموت ، أو أحلام الاستخارة أو الاستدلال ، أو الأحلام الصافية التى يعى فيها المرء فى أثناء الحلم أنه يحلم فعلاً ، أو الأحلام السحرية التى يتمتع فيها بقوى خارقة مثل التحول إلى حيوان أو خروج الأشعة من العين مثلاً ، أو الأحلام التبادلية التى يراها شخصان فى نفس الوقت بنفس التفاصيل ، أو ..)

بحر هائل من المعلومات ، ولا أريد أن أضل طريقى ..

(.. ومن الصعوبة بمكان دراسة هذه الأحلام فى المعمل ، لذا فهى حتى الآن مجرد ظواهر غامضة لا تفسير علميًا لها ..)

متوقع ولكنه مخيب للآمال !

الأديان السماوية لا ترفض الفكرة ، بل تعضدها كما ورد فى قصة سيدنا (يوسف) عليه السلام فى أثناء وجوده فى السجن ، عندما فسر حِلْمَىْ رفيقيه ، ثم حلم العزيز بسبع بقرات سمان يأكلهن سبع عجاف ، وسبع سنبلات خضر وأخر يابسات ، بأنهن سبع سنوات من الخير والرخاء يتلوهن سبع شداد يأكلن ما قدمتم ، وهكذا استعد المصريون للجفاف بتخزين أكبر قدر من الغلال والمياه ..

(.. من الاعتقادات الخاطئة أنك لو مت فى الحلم أو سقطت من أعلى وارتطمت بالأرض فسوف تصحو ميتًا أو تشكو من نفس أعراض السقوط الحقيقى ، فقد عاش الكثيرون ليحكوا أحلامًا كهذه بعد استيقاظهم من النوم ..)

لكن .. هل حلموا بذلك فعلاً أم كانت محض افتراءات ؟!

لن نعرف حتى نسجل الأحلام ونراها بأنفسنا .. هل يمكن

تحقيق ذلك كما تفعله (عبير عبد الرحمن) في (فانتازيا) ؟!

(.. كان العنكبوت ينسج شبكته في بطء وهدوء بجوار سرير الجدة (نوكوميس) ، التي تراقبه كل يوم وهو يعمل ويعمل .. وفي يوم بينما هي تراقبه ، دخل عليها حفيدها وصرخ عندما رأى العنكبوت ، وهم بخلع حذائه لكي يسحقه .. أمرته الجدة بعدم إيذائه ، فتركها الفتى غاضبًا وانصرف بينما ابتسمت هي في رضا .. نظر إليها العنكبوت وشكرها ثم قال :

ـ في مقابل إنقاذك لحياتي سأمنحك هدية ، وابتسم ابتسامته العنكبوتية الخاصة قبل أن يتحرك ويعاود عملية نسج شباكه .. بعدها بوقت قصير أضاء القمر شبكة فضية سحرية تتحرك في نعومة أمام النافذة .. قال العنكبوت : انظري وتعلمي ، الشبكة سوف تحجز عنك الأحلام السيئة ، والأحلام السعيدة فقط هي التي سوف تنفذ عبر الثقوب الدقيقة . هذه هديتي لك . استخدميها ولن تتذكري إلا الأحلام السعيدة ، بينما تبقى الكوابيس عالقة في الشبكة بلا أمل أو حراك ..)

أسطورة (صائد الأحلام) من تراث الهنود الحمر ، أعتقد أن شيئًا كهذا يمكن أن يكون الأمل الأخير أمام (رشا الدويني) !

متى تتحقق رؤيتها ؛ وقد مر كما تقول النتيجة على الحائط أكثر من أسبوع كامل ؟!

(.. الدكتور (هيرن) يرى أن هناك تأخيرًا أو فترة كمون بين النبوءة وتحققها ، (باربرا جارويل) على سبيل المثال أظهرت ما يسمى بتأثير الـ ٢١ يومًا .. ففي سبتمبر ١٩٨١ حلمت (باربرا) بمجموعة من رجال الحكم في دولة من الشرق الأوسط متجمعين في ما يشبه الملعب الرياضي الواسع .. مجموعة من الجنود ركضوا من إلى الصفوف وأمطروها برصاصات المدافع الأوتوماتيكية .. وبعد واحد وعشرين يومًا في السادس من أكتوبر ١٩٨١ ، اغتيل الرئيس المصري (أنور السادات) بينما كان يحضر عرضًا عسكريًا احتفالاً بنصر ٧٣ على إسرائيل ، وأصيب العديدون فيما يشبه التطابق بين حلمها والواقع !)

مازال أمامي أيام كثيرة إذن ..

شهور ربما ..

سنوات !

وكنت فى غرفتى ، بين أكوام الكتب والأوراق ، عيناى منهكتان من القراءة وقلة النوم ، عندما رن جرس الهاتف ..

ـ آلـو ..

نطقت بها وأنا أكاد أسقط مغشيًا علىّ ، عندما ..

ـ مساء الخير يا صغيرتى !

الصوت الأجش الذى يتعمد صاحبه تغييره ، و ..

ـ (س) ؟!

إنه هو .. هو أخيرًا !

ـ .. السيد (س) ؟!

ـ مر وقت طويل ..

هتفت به فى لهفة تتناقض مع فزعى من صوته فى البداية البعيدة :

ـ ماذا لديك هذه المرة ؟!

الصوت الأجش الذى يتعمد صاحبه تغييره :

ـ مثل كل مرة ..

نظرت إلى المكان والفوضى من حولى ، وقلت أستغيث به :

ـ ألا ترى ما أنا فيه من مأساة ؟!

ـ أرى كل شىء ..

هذا أكيد !

ـ .. وكل شىء أسمع ..

سألته فى لهفة أقرب للضراعة :

ـ ضع حدًا لحيرتى وحيرة (رشا) إذن ..

أتانى صوته قاطعًا :

ـ السيد (س) لا يضع الحدود ، وإنما يحطمها ..

ضراعة أبعد من اللهفة :

ـ ساعدنى ..

سخرية أحبها :

ـ السيد (س) يساعدك برغم أنفك !

ثم جدية لا أكرهها :

ـ .. إن السمك الكبير يستعد لالتهام السمك الصغير ..

ألغاز لا وقت لها :

ـ ما معنى هذا ؟!

ـ إليك يا حورية البحر العنوان ..

ألغاز لا وقت لها :

ـ عنوان ماذا ؟!

ـ عنوان الجريمة .. أسرعى ..

ـ لكن الأحلام ..

قاطعنى كخنجر مسنون :

ـ الأحلام تنتظر ، الجرائم لا تنتظر ..

ـ لكن الـ ..

ـ توت .. توت .. توت ..

أغلق الخط ، وبقيت واقفة وسط أكوام من الكتب والأوراق ، ممسكة الهاتف بملامح تخفق بالقلق ..

وتنطق بالتوتر !

* * *

ليل ، شارع مظلم ..

ورجلان ..

الأول ممتلئ إلى حافة البدانة ، عيناه خضراوان وشقرته كالحة ، يرتدى حلة غير مهندمة ، ويضع كوفية صغيرة على كتفيه برغم حرارة الصيف الخانقة ، ويمسك بحقيبة سوداء جديدة من الجلد الطبيعى ..

ـ هل تريد أكثر ؟! لا تكن جشعًا إلى هذا الحد يا (عاشور) !

ـ العفو يا (حلمى) بك .. المسألة ليست نقودًا بالمرة !

الثانى ـ (عاشور) ـ أصلع الرأس ضئيل البنية محدودب الظهر ، يرتدى حلة صيفية ذات جيبين ضخمين من الأمام ، ويضع جريدة اليوم تحت إبطه ..

دفع (حلمى) الحقيبة نحو صدر (عاشور) فى غلظة وهو يهتف به مبددًا سكون ووحشة الليل من حولهما :

ـ إذن خذ ولا تعكر دمى على المساء ..

وقعت الجريدة من تحت إبط (عاشور) على الأرض ، بينما هتف فى ارتباك دون أن يمد يديه :

- المسألة وما فيها يا (حلمى) بك أن فيما تطلبونه خروج صريح على القانون ..

- يا سلام ..

هتف بها (حلمى) فى استنكار وهو يدفع الحقيبة نحوه فى غلظة أكبر :

- .. ألا يستحق هذا المبلغ أن يكسر من أجله هذا القانون ؟!

ارتجف (عاشور) وهو يقول متألمًا :

- لا أريد أن أفقد وظيفتى يا (حلمى) بك ..

صرخ فيه (حلمى) :

- أيها المغفل ، هذا المبلغ يساوى راتبك فى مائة عام تقريبًا ..

ارتجف (عاشور) وهو يشرف على حد البكاء :

- لماذا لا تختارون شخصًا غيرى ؟!

كاد (حلمى) يفقد صبره ، لكنه آثر قطع الطريق إلى آخره :

- لأنك الوحيد الذى تملك ختم أوراقنا بالختم الذى نريده فى جهاز المدينة ، ظننت هذا واضحًا منذ البداية !

ودفع الحقيبة نحوه مجددًا :

- .. خذ ، على أن تكون الأوراق جاهزة صباح الغد ..

نظر (عاشور) إلى الحقيبة قبل أن يغلق عينيه فى قوة هاتفًا كأنه يجاهد نفسه جهادًا مرًا :

- كلا .. لا أستطيع فعل هذا .. لا أستطيع ..

دفع (حلمى) الحقيبة فى صدره بمنتهى الخشونة :

- ستفعل يا (عاشور) .. لا أحد لا يفعل ..

عاد (عاشور) ينظر للحقيبة ثم يغلق عينيه ويصرخ :

- كلا .. كلا !

هنا فقد (حلمى) صبره ، وأنهى التفاوض بطريقته الخاصة ..

استل مسدسه على الفور ، وصوبه إلى (عاشور) مزمجرًا :

- الخيار لك الآن يا (عاشور) ..

لهاث ..

- .. إما الرفض والموت ..

نظرات ..

ـ أو القبول والتنفيذ ..

صمت ..

ولأن الخيار كان محدودًا جدًا ، مد (عاشور) يديه فى النهاية ممسكًا بالحقيبة ..

كان (حلمى) يعرف أنه سيفعل ..

وابتسم بسمة كريهة ، عندما ..

ـ لا .. لا .. الموت أهون ..

تحولت البسمة إلى تكشيرة غاضبة ، وصراخ عاتٍ :

ـ ستناله إذن أيها الـ ..

أغلق (عاشور) عينيه وهو لايزال قابضًا على الحقيبة بأصابعه النحيلة ..

صوب (حلمى) المسدس نحوه جانبًا الإبرة ، ومعتصرًا الزناد ..

وفجأة ..

دوى صوت احتكاك الفرامل عند بداية الشارع ..

ثم غمر ضوء السيارة الشارع المظلم ، فى نفس اللحظة التى اخترقت فيها رصاصة (حلمى) صدر (عاشور) ..

طار (عاشور) إلى الوراء ، والحقيبة لاتزال فى يده ..

سقط فوق برميل عتيق ، وبدأ ينزف حياته على الأسفلت ..

اقترب منه (حلمى) والدخان يفوح من فوهة مسدسه ..

انحنى فوقه بسرعة بينما مازلت أنا أقترب داخل سيارة أبى ..

جذب (حلمى) الحقيبة خاصته ، لكنها لم تستجب له ..

جذبها مرة أخرى لكن أصابع (عاشور) كانت تقبض عليها فى قوة رهيبة ..

ـ اتركها أيها الوغد ..

لم يعرف (حلمى) بالطبع ما هو التخشب اللحظى ، لكنه خمن شيئًا كهذا عندما لم تطاوعه الحقيبة ، وعندما لم يرد (عاشور) بكلمة ..

(عاشور) الذى كان قد فارق الحياة ..

مازلت أقترب ، ودواسة الوقود تحت قدمى تنضغط وتنضغط ..

اعتدل (حلمى) ونظر إلى الحقيبة فى حسرة ، سينال عقابًا بشعًا من سيده عندما يعود دونها بكل ما تحويه من دولارات ..

وبنبأ وفاة من يفترض أنها كانت ستدفع إليه ..

لا وقت للتفكير الآن ، عليه أن يهرب ..

يبتعد ..

كنت قد اقتربت بالسيارة إلى حد الملامسة ، عندما نظر هو نحوى فرأيت ملامحه فى جلاء تام ، ووضوح لا غبار عليه ..

انحفرت ملامحه فى ذاكرتى فى تلك اللحظة الواهية قبل أن يبتعد ..

وقبل أن أتوقف أنا ، وأهبط متلفتة حولى ، ثم أسير دانية من (عاشور) لأكتشف موته ..

بالأحرى مقتله ..

ولأكتشف أيضًا تحقق الحلم (رشا) مرة أخرى ..

بأدق تفاصيله ..

وقفت فى منتصف الشارع المهجور عاجزة عن التفكير ، وبعد هنيهة تمالكت نفسى ، وأخرجت هاتفى المحمول لأطلب رقم (هشام) النائم حتمًا ..

- أى كارثة أخرى توقظيننى من أجلها يا (نسرين) ؟!

جيد أنه اعتاد كوارثى الليلية ..

- جريمة يا (هشام) ..

ونظرت نحو (عاشور) النازف دون توقف ..

- جريمة قتل !

* * *

٥ ـ فتاة تحتضر ..

ـ يبدو أن صاحبتك هذه تنوى منافسة (زرقاء اليمامة) !

تشبيه ضحل ، لكنه متوقع من (هشام) خاصة عندما يصحو من النوم على نحو مباغت ..

الشمس لم تشرق بعد ، لكنها ستفعل بعد قليل عبر الأفق الفضى الذى يستقبل ميلاد الفجر ..

قلت وأنا أراقب الرجال العاملين حول جثة القتيل عن كثب :

ـ لقد تحقق حلمها مرة ثالثة ..

أشعل سيجارة ليغيظنى وهو يقول :

ـ هذا ما أردت قوله أنا أيضًا ..

نظرت إليه عبر سحب الدخان المتجمعة حول وجهه ، ناشرة رائحة التبغ والنيكوتين :

ـ بقيت اللقطة الأخيرة ..

نفث سحابة أخرى وهو يسألنى متعجبًا :

ـ اللقطة الماذا ؟!

أجبته وأنا أتنهد فى عمق :

ـ اللقطة الأخيرة ، نهاية حلمها التى لم ترها بعد !

هتف نافثًا المزيد من الدخان والحنق :

ـ هذا ما كان ينقصنى حقًا .. فى البداية صديقتك التى ترى أحلامًا ، ثم بطلك الغامض الذى يتفنن فى إنزالك من المنزل بعد منتصف الليل ، وأخيرًا هذا الهذيان الذى لا أفهمه ..

تجاهلت قوله ، وسألته مشيرة نحو جثة الرجل النحيل التى بدءوا فى حملها فوق محفة :

ـ هل عرفتم هويته ؟!

دخان ونفاد صبر :

ـ لم يكن الأمر صعبًا ؛ إنه يحمل جميع أوراقه الشخصية فى حافظة جيبه ..

ثم استطرد :

ـ .. (عاشور حسين معروف) ، ٥٦ عامًا ، متزوج وله

أولاد تخرجوا فى الجامعة ، موظف قديم فى جهاز مدينة (العاشر من رمضان) ، يسكن فى ..

قاطعته غير مهتمة بثلاثة أرباع ما يقول :

ـ ولماذا قُتل ؟!

هز كتفيه ، وتوهجت مقدمة السيجارة قبل أن ينفث الدخان :

ـ السبب غير واضح بما يكفى ، لكن حقيبة الدولارات التى كان يحملها لها يد فى هذا دون شك !

قلت مستغربة وقع الكلمة على أذنى :

ـ دولارات ؟!

أومأ أن نعم ، ثم توهج ودخان وتفسير :

ـ الحقيبة تحوى آلاف الدولارات فى رزم كبيرة ، ومن الغريب حقًا أن نجدها بين يدى موظف بسيط مثل (عاشور) ..

قلت أفكر :

ـ إنها تخص القاتل .. تخصه بالتأكيد !

سألنى :

ـ تقصدين أنه حاول رشوة هذا الموظف مثلاً لينجز له عملاً ما ؟!

ـ احتمال وارد ..

قلتها متقمصة دور الآنسة (هولمز) ، فقال (هشام) ساخرًا :

ـ ستكون هذه أغرب حالة تلبس بالرشوة فى تاريخ المباحث الجنائية كلها ، الراشى يقتل المرتشى !

واصلت التقمص الخائب :

ـ علينا الآن أن نسعى فى اتجاه ذلك الرجل .. أعنى القاتل !

سألنى وهو يأتى على آخر أنفاس السيجارة المتآكلة :

ـ ذلك الذى لم يره أحد سواك ؟!

ـ أنا واثقة من أنى رأيته ..

قال منهيًا الجرعة السمية القاتلة ، وداهسًا إياها بحذائه :

ـ عمومًا .. سنأخذ أوصافه الدقيقة منك بشكل رسمى ، علّنا ننجح فى رسم صورة تقريبية له قد تعيننا فى القبض عليه ..

إنه الفجر ، وأنا واقفة مع (هشام) أفكر فى خطوتى القادمة التى لابديل عنها ..

(رشا الدوينى) ..

- بقيت اللقطة الأخيرة !

* * *

رائحة الموت مازالت قوية ، بل إنها قد أصبحت أكثر قوة وحضورًا وعنفوانًا ..

النافذة مازالت موصدة بإحكام ، الكتب والأوراق قد رتبتها يد الأم الصابونية ، رسوم القلم الرصاص المرعبة مازالت فوق الجدران ، الأدوية و(رشا) التى تتنفس بصعوبة بينما يداها وقدماها لاتزال مربوطة بالقماش الأبيض إلى قوائم السرير ..

وجهها قد ازداد شحوبًا ، إنه شحوب الاحتضار لو لم أكن مخطئة ..

- تحققت الرؤى إذن ..

نطقت بها فى وهن ، بينما اقتربت أنا منها لأجلس إلى السرير بجوارها ، مشيرة إلى الأم المكلومة بأن تتركنا ..

- أجل يا (رشا) .. تحققت !

- سأحضر لكِ الشاى يا بنتى ..

قالتها الأم قبل أن تخرج مغلقة الباب خلفها ، وكأننى جئت بحثًا عن كرم الضيافة !

قالت (رشا) بعينين تحجرتا على سقف الغرفة :

- أريد أن أستريح !

قلت فى إشفاق بالغ :

- أنتِ لاتنامين ، هذا واضح ..

همست دون أن تتحرك ، كأنها كتلة من حجر صوان :

- كلما ذهبت فى النوم طاردتنى الكوارث والكوابيس ..

وددت لو كان فى يدى ما أفعله ، فأنا أقدّر معاناة هذه الفتاة المسكينة حقًا ..

أقدرها بعمق وشفافية ..

أن ترى الكوارث قبل أن تقع ، ولايكون فى يدك أن تمنعها ..

أن تعيش نومك بين الدم واللهب والموت والصراخ والرعب ، وأن تعيش نهارك مطاردًا برؤى الليل الكئيب ، منتظرًا ما تعرف يقينًا أنه سيحدث ..

أن تكون غريبًا منطويًا وسط عالم يصفك بالشؤم ، ويتحاشاك كالطاعون ..

إنه الاحتراق الحقيقى فى أتون المعرفة ، ونيران الحقيقة ..

قلت فى محاولة لفعل أى شىء ، وقد أضاء ركن الأفكار فى غياهب عقلى :

- من الممكن أن أدلك على طبيب نفسى بارع ، إن أبى ..

لكن صوتها الحجرى قاطعنى :

- سحقًا للأطباء ، إنهم لا يصدقون إلا ما يرونه بأعينهم فقط ..

ابتلعت كلماتى وقد أظلم ركن الأفكار فى غياهب عقلى ..

- .. لو أن أحدًا يرى بعينى ، ويلج بأقدامه إلى عالم كوابيسى !

مسكينة ..

- .. لو !

سألتها وأنا أستسخف سؤالى قبل حتى أن أنطق به :

- ألم تنامى منذ كنت عندك الأسبوع الماضى ؟!

قرأت بفراستها ما بين السطور ، وقالت فى استخفاف :

- من يستطيع ألا ينام أسبوعًا ؟! لقد كان وقتًا حافلاً بالحوادث حقًا ..

كدت أسألها السؤال الذى من أجله أتيت ، لكنها سبقتنى بقولها :

- .. تريدين أن تعرفى نهاية الحلم الخاص بك ، أليس كذلك ؟!

اعترانى الحرج واجتاحنى الصمت ، لكن عينىّ نطقتا - على الرغم منى - بلهفة صريحة ، وبرغبة محتدمة :

- .. النهاية المؤسفة !

وجدتنى أهتف بها :

- ماذا سيحدث ؟!

قالت وهى تمتص سقف الغرفة داخل عينيها :

- هناك زحام أطفال فى وضح النهار ، وسيارة بيضاء

تربض إلى جوار البرج الشاهق .. السيارة سيارة أبى ، أما البرج فربما يكون ..

ـ .. برج (القاهرة) !

ما الذى سوف يذهب بى إلى هناك ؟! هى لا تعرف بالتأكيد ..

ـ .. تهبطين ممسكة بالحقيبة ، ثم تطيرين إلى القمة بجناحين من المعدن ..

حقيبة ؟! أى حقيبة ؟! حقيبتى الشخصية أم ...

ـ .. وهناك تقابلينه فى الانتظار ..

من ؟!

ـ .. تقفين فى مواجهته وتمدين يدك إليه بالحقيبة ، عندما يستل هو مسدسه مبتسمًا فى وحشية ، و ....

ماذا ؟!

ـ .. تخافين ، وتدفعين الحقيبة فى وجهه ثم تركضين هاربة ..

سأهرب إذن ..

ـ .. لكنه يرفع المسدس عاليًا ويطلق النار على ظهرك ..

يطلق النار ؟!

ـ .. تسقطين منكفئة على وجهك ، وتتفجر الدماء من قلبك الخافق بالحياة والموت ، بينما تحلق الطيور الخضراء من حولك !

رباه ..

إنها نهايتى إذن !

أحلامها تتحقق ، وأنا سأموت فى البرج بعد فترة قصيرة ..

ساعات أو أيام أو أسابيع ..

الوجوم ..

ـ .. لم أكن أريد أن أخبرك ، لكنها الفرصة الأخيرة ..

أسألها وقد تحجرت نظراتى أنا الأخرى :

ـ الفرصة الأخيرة نحو ماذا ؟!

ـ نحو تحطيم القاعدة ..

ثم إنها وضحت مقصدها :

ـ .. خذى الحذر ، ولا تذهبى إلى برج (القاهرة) ـ مهما يكون السبب ـ فتتحطم النبوءة ، وأتحرر أنا من لعنة الكوابيس التى تطاردنى لتتحقق ..

يبدو هذا منطقيًا بالفعل ، لكن السؤال هو :

ـ وهل أملك الاختيار ؟!

قالت وهى تحاول أن تحرك أعضاءها ، فبدت أشبه بدودة قز :

ـ تملكين الإرادة الحرة .. كلنا نملكها ..

عاد ركن الأفكار يضىء فى الغياهب ، فنظرت إليها لأسألها :

ـ هل رأيت الرجل الذى يقتلنى بوضوح ؟!

قالت وهى تتلوى وتتلوى :

ـ كأننى أرى الشمس فى سماء صافية ..

عدت أسألها وفى عقلى تتشكل فكرة ما :

ـ هل تستطيعين وصفه لى بدقة ؟!

وفاجأتنى إجابتها :

ـ بل أستطيع أن أرسمه أيضًا ..

لانت أحجار نظراتى ، وأنا أنظر إليها فى دهشة إذ تابعت :

ـ .. كل ما ترينه من رسوم على الجدران رسمتها أنا ، كلها رؤى وأحلام وكوابيس رأيتها وظلت تطاردنى ..

العلاج بالفن ، العلاج بالرسم ، العلاج بالتنفيس ، لكن كل هذا لم يفلح معها على ما يبدو ..

قلت فى مجاملة صادقة ؛ لم يكن هذا وقتها المناسب بأى حال :

ـ أنت رسامة بارعة ..

وشعرت بالرعب إذ نقلت بصرى بين التكوينات المفزعة ، العيون الجاحظة والصرخات والأشواك والدماء والمشانق

والطعنات وأجنحة الموت والقتل والخراب .. لو أن (جويا) شاهد واحدة منها لما جرؤ على تسمية مجموعته الشهيرة باللوحات السوداء ..

قالت ونبراتها تتخذ سمتًا أوهن وأوهن :

- فكّى قيودى وسأرسمه لكِ ..

رأيت أمامى وجه الأم المكلوم ، ونظرت نحو النافذة الموصدة بإحكام قبل أن أقول :

- ولكن ..

قرأت مخاوفى فقالت :

- لن أقدم على الانتحار ثانية ، فقد حلمت بنهايتى ولن تكون كذلك أبدًا ..

طمأننى قولها نسبيًا ، وطمأنت نفسى أكثر بأن فكرت بأننى سأعاود ربطها فى السرير ثانية بعد أن ترسم لى الرجل الذى سيقتلنى !

وهكذا ساعدتها لكى تعتدل جالسة فوق السرير ، وناولتها

فرخًا من الورق الأبيض وقلمًا من الرصاص لتبدأ هى فى إلقاء الخطوط بيدين مرتجفتين ..

وبدأت الملامح تتضح بسرعة ..

إنه هو ..

القاتل الذى رأيته ليلاً فى الشارع المظلم قبل أن يركض هاربًا ..

هو بامتلائه وملامحه القاسية وحتى الكوفية الملتفة حول رقبته برغم حرارة الصيف ..

- هذا هو ..

قالتها بعد أن فرغت من إلقاء كل ما لديها من خطوط فوق الورقة ، فانتزعتها منها لاهثة ، ودون أن أدرى سارعت بمغادرة غرفتها ..

يجب أن يطّلع (هشام) على هذه الصورة ، فهى نسخة متطابقة منه ، وستساعدهم فى القبض عليه بسرعة حتمًا ..

- الشاى يا ابنتى ..

لم أجب حتى نداء الأم المكلومة وقفزت الدرجات الهابطة ثلاثًا ثلاثًا ..

فى الأسفل لم أنتبه للعيون التى تراقبنى من بعيد ..

ـ بديع ، موعدنا الليلة أيتها الـ ..

ولا للعيون التى تراقب من يراقبنى !

ـ لا تقلقى ، يا صغيرتى !

* * *

٦ ـ فتاة فى خطر ..

أوقف (هشام) سيارة الشرطة أمام مدخل البناية التى أسكن فيها ، والتفت إلىّ قائلاً :

ـ قلبى غير مطمئن لكل ما يحدث يا (نسرين) !

حاولت أن أبتسم ، لكن محاولتى أخفقت :

ـ ماذا تفعل لو كنت مكانى إذن ؟!

ـ هل أخبرتكِ ببقية حلمها عنكِ ؟!

وددت لو أخبرته ، على الأقل حتى أجد من يشاركنى همّى ، لكنى أحجمت فلم أكن أريد أن يتقلب على صفيح ساخن بسببى ..

سأنتظر حتى أفهم وحتى تتضح الأمور ، وعندها سأخبره بكل شىء ..

ـ كلا ..

الكذب الأبيض مفيد أحيانًا !

- .. أعطتني صورة القاتل فحسب ، فحدست أنها ستكون أكثر إفادة من تلك الأوصاف العائمة التي أمددتكم بها ..

تنهد ، ولعله فكر في إشعال سيجارة لكنه تراجع عن الفكرة حتى لا يضايقني ، وهو أحيانًا يفقد هذه الرغبة الملحة بأن يفعل ..

- ستكون كذلك بالفعل .. ستتمكن من مضاهاتها بالمسجلين الخطرين في ملفاتنا ، بل ويمكننا أيضًا أن نعرضها على زملاء القتيل في مقر عمله ؛ لنرى إن كان أي منهم سيستدل على هويته ، خاصة مع اشتباهنا في مسألة الرشوة هذه ..

- جيد ..

قلتها بنصف وعي ، وأنا أمر ببصري على صف السيارات الرابضة على جانبي الشارع الهادئ تحت أستار الليل الرطب ..

- (نسرين) ..

لم تكن من بينها سيارة أبي البيضاء ، ما زال في المستشفى إذن ..

- .. لماذا أشعر بأنك لست على ما يرام ؟!

سألني وهو يتأمل ملامحي ، ووددت مرة أخرى لو تحررت بين يديه من كل المخاوف والهواجس ، غير أنني استمسكت بموقفي حتى النهاية ، وقررت ألا أضعف ..

- لا أعلم ، ربما بعض القلق الطبيعي .. إنها ليست أيامًا عادية ..

أمسك بكفي ، وقبل أطراف أصابعي في حنان ، فوجدت نفسي أبتسم له ..

الرومانسية هي العلاج الشافي من أدران كثيرة ، في أي وقت ومكان ..

- هل ستذهب للنوم الآن ؟!

قال باسمًا ، ربما ليبثني بعض الطمأنينة :

- أي نوم ؟! إن أمامي ليلة طويلة من العمل ..

قلت وأنا أفتح الباب المجاور لي :

- أنا الأخرى أمامي عمل كثير ، لكني أعتقد بأني سأؤجله حتى الغد ..

قال في تأييد :

- بعض الراحة ستفيدك حتمًا ..

هبطت وتبادلنا التحية ، ولم يمض (هشام) بسيارته حتى غبت عن مجال رؤيته فى بئر السلم ، سمعت محرك سيارته يهدر وأنا أصعد الدرجات فى تهالك ..

سأنام ، محتاجة أنا لنومة طويلة تمنحنى بعض النشاط والقدرة على التفكير السليم .. ربما أمر بـ (رشا) غدًا .. كلا ، سأمر على أبى فى المستشفى أولاً وأسأله عن عنوان عيادة طبيب الأمراض النفسية الشهير صديقه .. سأقنع (رشا) بالذهاب إليه ، فإن لم تقتنع سأحاول إقناع الطبيب الذى سيجد الأمر مثيرًا للاهتمام بالتأكيد .. لن أترك الفتاة تموت بينما أجلس أنا فى مقعد المتفرجة السلبية ، غير متهمة بشىء سوى أنانية مصيرى وحدى ..

أدرت المفتاح فى ثقب الباب فطاوعنى منفتحًا ، ولجت مغلقة إياه من خلفى ، ثم امتدت يدى نحو زر الإضاءة .. هذه هى اللحظة التى تثير رعب الكاتب الأشهر (ستيفن كنج) : أن تمد يدك نحو زر الإضاءة فى الظلام ، عندما تقبض الأصابع الباردة على معصمك ..

لكن شيئًا لم يمتد نحو معصمى ، وغمر الضوء أنحاء الصالة فى سلام ..

كل شىء عادى فى موضعه ، فيما عدا ..

فيما عدا ذلك الرجل !

(.. ممتلئ إلى حافة البدانة ، عيناه خضراوان وشقرته كالحة ، يرتدى حلة غير مهندمة ، ويضع كوفية صغيرة على كتفيه برغم حرارة الصيف الخانقة ..)

يجلس على المقعد الهزاز فى منتصف الصالة ، فى موضع جلسة أبى المفضلة !

شهقت فى فزع ، وقفز صدرى من بين الضلوع ، لكنى لم أصرخ ..

كيف أفعل وهو يصوب نحوى مسدسه قائلاً :

ـ مساء الخير يا جميلة !

تراجعت حتى التصق ظهرى بالحائط ، وعجزت عن النطق بحرف واحد ..

ـ .. مفاجأة سارة ، أليس كذلك ؟!

مفاجأة بالفعل .. لكن : سارة ؟!

ـ .. كـ .. كـ .. كـ ..

محاولة فاشلة ..

ضحك فى نشوة ، والتمع خضار عينيه ببريق شرير فى تأرجحه فوق المقعد ، بينما الفوهة مصوبة نحوى :

- كيف دخلت إلى هنا ؟! هه ؟!

هذا ما أردت قوله بالفعل ..

- .. إن لى أساليبى التى لا تخيب ، ولندخل فى صلب الموضوع قبل أن يقتلك الخوف ..

هذا أفضل بالتأكيد ..

- مـ .. مـ .. مـ ..

محاولة فاشلة رقم ٢ !

- أنتِ الشاهدة الوحيدة على قتلى لـ (عاشور) ..

هذا صحيح بالتأكيد ..

- هل .. هل ..

وابتلعت ريقى معلنة فشل المحاولة رقم ٣ ..

- أجل ..

لابد أنه قد خمن السؤال ، وكان الجواب :

- .. القتل هو الطريقة الوحيدة لأن تدفن شهادتك معك ، لكنك محظوظة ..

حقًا ؟

- .. سأمنحك فرصة أخرى للحياة ..

بدأت أتماسك قليلاً فكادت المحاولة رقم ٤ أن تنجح :

- مـ .. ماذا .. تـ .. تريد .. فى الـ .. المقابـ ؟!

كان الجواب غريبًا ، صادمًا :

- الحقيبة ..

صمت ، ثم سؤال :

- أى .. حقيبة ؟!

ثم جواب :

- حقيبة الدولارات التى كانت مع (عاشور) !

صمت ، ثم صمت ، ثم :

- لكن .. إنها ليست معى ..

بدأ الجليد يذوب لسانى ، وبدأت أستعيد قدرتى على التفاوض ..

- أعلم ..

قالها وهو ينهض من فوق المقعد ، ثم يقترب منى فى اطراد :

-.. لكنى أعلم عنك كل شىء أيضًا ..

يقترب ويقترب ، والفوهة مازالت تواجهنى منذرة بالموت فى رصاصة :

-.. رأيتك تقتربين من موقع الحادث ، ومنذ لحظتها وأنا أجمع عنك كل المعلومات الممكنة بكل وسائلى وقدراتى .. يا آنسة (نسرين) ..

يقترب ويقترب :

-.. (نسرين فاروق الجبالى) ، طالبة (إعلام) وصحفية نصف شهيرة ، تبيع سطورًا من الأساطير على صفحة الحوادث عن بطل غامض ، والدها جراح مخ وأعصاب شهير ، وخطيبها هو الرائد (هشام القاضى) من المباحث الجنائية ..

يعلم عنى الكثير بالفعل ، مع الوضع فى الاعتبار أنه يقترب منى داخل جدران منزلى :

-.. الرائد (هشام) الذى ما تزال أدلة حادث (عاشور) فى مكتبه منذ فجر اليوم ..

مهددًا إياى بمسدس مزود بكاتم غليظ للصوت :

-.. الأدلة التى تتضمن حقيبة الدولارات ..

لامس كاتم الصوت عظمة القص فى منتصف قفصى الصدرى ، فرفعت عينى إلى الرجل ذى الملامح القاسية ، وأنا أجاهد للتماسك والقول :

- لكنى لا أملك صلاحية أن أحصل على الحقيبة ..

كشر عن أنيابه وهو يقول :

- هذه مشكلتك وحدك ، أن تحصلى على الحقيبة دون أن تعلم الشرطة بشىء عن هذا الأمر ..

وأضاف بعد أن نفث فى وجهى أنفاسه الكريهة :

-.. لن يشك فيك أحد إذا ما تسللت إلى مكتبه وأخذت الحقيبة صباح اليوم ..

علا صدرى وهبط بينما أسأله :

- ومن يضمن لك أننى لن أبلغ خطيبى بالأمر ؟!

ضحك فى وحشية وهو يهتف بى :

- هل تظنيننى غرًا أبلهَ ؟! إننى أعمل فى هذه القذارات منذ كنتِ تتعلمين المشى ..

ثم أضاف فى شر وبيل :

ـ .. ستأتين بالحقيبة فى تمام الحادية عشرة صباحًا ، ستجديننى منتظرًا فى الطابق الأخير من برج (القاهرة) !

هتفت مذهولة :

ـ من ماذا ؟!

قال متجاهلاً هتافى :

ـ وإذا اكتشفت تلاعبًا أو تسربًا للخبر إلى الشرطة ، فلن يكفينى قتلك ..

صمت ، ثم تابع وهو يدنو بأنفاسه الكريهة من وجهى أكثر :

ـ .. سيلقى الدكتور (فاروق الجبالى) مصرعه بطلقة من هذا المسدس .. الدكتور (فاروق الجبالى) والدك يا جميلة ..

أبى ؟!

لا ..

هذا الوغد يضغط على أكبر نقاط ضعفى ..

ـ .. أنا لا أعمل منفردًا ، بل إن خلفى منظومة كاملة ما أنا إلا ترس صغير فيها ، ترس غير مسموح له بخطأ جسيم كالذى حدث أمس ..

أين السيد (س) لينقذنى الآن ؟!

أين ؟!

ابتعد الرجل عنى ، وأنزل فوهة مسدسه متجهًا إلى باب الشقة :

ـ .. لاتنسى موعدنا ، برج (القاهرة) فى تمام الحادية عشرة .. التأخير غير مسموح به بكل أسف ..

ثم رفع الكوفية ليغطى بها وجهه ، وفتح الباب وأغلقه ..

صمت ، ورعب ، وأنفاس لاهثة ..

حتى البكاء لم أقدر عليه ..

أى مصيبة هذه التى أنا فيها ؟!

أى كارثة محققة ؟!

ماذا أفعل الآن ؟!

ماذا يمكن أن أفعل ؟!

أتصل بـ (هشام) وأعرض أبى للقتل ؟!

أتصل بأبى وأسأله المشورة ؟!

أفعل ما أمرت به ؟!

كلها خيارات من نار ..

الهاتف يرن ، وأنا مازال ظهرى ملتصقًا بالجدار ، وعيناى مازالتا فى ذهول مرعوب ومرعب ..

كم مرّ من الوقت وأنا على هذه الحال ؟!

الهاتف يرن فى إلحاح ، وأنا أرفع السماعة أخيرًا دون أن أقوى على الرد ..

ـ ستفعلين ما أُمرتِ به .. يا صغيرتى ..

إنه هو ..

ـ السيد (س) ؟!

أهتف بها فى لهفة لا أول لها ولا آخر ..

ـ أنا هو ، وهو أنا ..

ـ رأيت وسمعت ؟!

ـ السيد (س) يرى كل شىء ، وكل شىء يسمع !

أهتف فى عتاب :

ـ ولِمَ تتدخل لإنقاذى ؟!

كأنه من حقوقى المكتسبة !

ـ لم يحن الوقت المناسب ..

ـ أى وقت ؟!

ـ اقتربنا كثيرًا ، ستذهبين فى الموعد ..

ـ والحقيبة ؟!

ـ ستذهبين بالحقيبة ..

ـ هل أسرقها من مكتب (هشام) وأعرضه للـ ... ؟!

ـ لن تحتاجى لفعل ذلك ..

على حافة التساؤل يجيبنى :

ـ .. الحقيبة ستكون لديك فى الحال ..

كأننى فى حاجة للمزيد من الرعب ..

ـ وكيف ذلك ؟!

ـ توت .. توت .. توت ..

انقطع الخط قبل أن أفهم أى شىء ، هذا معتاد لكنى فى هذه الظروف أضعف من أن أحتمل ..

الحقيبة ستكون موجودة ، سأذهب بها فى الغد إذن مستقلة سيارة أبى البيضاء إلى برج الـ ...

مهلا ، لكنه ليس هنا ..

هل سأمر عليه فى المستشفى قبلها أم ..

هنا دار مفتاح فى ثقب الباب ، فالتفت نحوه بعينين وسعهما الهلع ؛ لأرى الباب ينفتح ، ويبرز من خلفه أبى ..

- (نسرين) .. أنت هنا ؟!

يرانى ويرفع نحوى حقيبة سوداء من الجلد الطبيعى ..

- .. هل هذه تخصك ؟! لقد وجدتها أمام الباب ..

أنت الحقيبة إذن ..

- .. (نسرين) ..

وأنت السيارة ..

- .. ما بك يا حبيبتى ؟!

ولم يبق إلا التنفيذ فى تمام الحادية عشرة صباحا ..

- .. لماذا لاتردين على ؟!

(.. خذى الحذر ، ولاتذهبى إلى برج (القاهرة) - مهما يكون السبب - فتتحطم النبوءة ؛ وأتحرر أنا من لعنة الكوابيس التى تطاردنى لتتحقق ..)

آسفة يا (رشا) ، ليتنى أستطيع ..

إن الإرادة الحرة وهم كبير يبدو لنا حقيقة ، لكنه أبعد ما يكون عنها ..

أبعد ما يكون !

* * *

٧ ـ فتاة فى البرج !

أوقفت سيارة أبى البيضاء على جانب الشارع ، ورفعت ناظرى لأعلى متأملة قمة البرج الشاهقة التى تناطح السحاب ..

برج (القاهرة) ..

أوقفتها وهبطت حاملة الحقيبة السوداء الفائحة برائحة الجلد والنقود ، ممتلئة بالدولارات فعلاً ، لكنى أجهل إن كان السيد (س) قد سرقها من مكتب (هشام) ، أم أنها حقيبة مشابهة ممتلئة بدولارات زائفة مثلاً !

لا أريد أن أعرف ، أنا ذاهبة لموتى بقدمى وهذه الأمور الدنيوية ليست إلا اتفاهات عقيمة بالنسبة لى ..

هناك أتوبيس مدرسة أمام مدخل البرج ، وزحام من الأطفال فى زى موحد جاءوا فى رحلة مدرسية بالتأكيد ..

إن (رشا الدوينى) دقيقة فى أحلامها إلى حد مخيف !

قطعت تذكرة ، وتسامح رجل الأمن فى تفتيش الحقيبة ،

فهو نهار بلا زحام ، وأنا لا أبدو كإرهابية تزمع تفجير المبنى لحسن حظى أو لسوئه ..

لو فتشها ورأى الدولارات فربما حدثت فى الأمور أمور ، لكن طريق الإنسان نحو الموت مفروش بالزهور دائمًا ..

حملنى المصعد كجناحين من المعدن لأعلى ، وانفتح مصراعاه عن المشهد المستدير للطابق العلوى ، حيث أرى (القاهرة) كلها فى الأسفل ـ عبر الشباك المعدنية الحاجزة ـ كخريطة من المبانى والسيارات والنمل ..

احتضنت الحقيبة وضممتها إلى صدرى فى قوة وأنا أخطو خارج المصعد فى حذر ، سرت أبحث بعينى عنه ، حتى رأيته يقف منتظرًا فى نهاية الممر الدائرى ..

بذاته وملامحه القاسية والحلة الرثة والكوفية ..

وبسمة من زيت لزج ..

المسدس ظاهر كانتفاخ تحت جيبه ، المسدس الذى سوف يقتلنى به بعد لحظات ..

هبت نسمة هواء باردة اقشعر لها بدنى ، وسرت نحو مصيرى بقدمين ثابتتين ، وذراعاى يعتصران الحقيبة على صدرى فى قوة أكبر .. وأكبر ..

وأخيرًا وقفت فى مواجهته ..

ـ رائع ، أحب الفتيات المطيعات !

نطق بها وهو يمد يديه فى طلب صريح لما أحمل ، ولم أملك إلا أن أخفف من ضغط ذراعى على الحقيبة ..

ثم أمد يدىّ إليه بها ..

أمسك بها بيد ، وباليد الأخرى فتحها ملقيًا نظرة على الرزم المتراصة فى داخلها ، قبل أن يشرق وجهه بالسعادة ..

ـ هذا رائع ، لكن ..

وتمتد يده الحرة إلى جيبه المنتفخ ..

ـ .. بقيت اللمسة الأخيرة !

إن (رشا الدوينى) دقيقة فى أحلامها إلى حد مخيف !

لم أستطع منع الخوف من احتلال قسماتى ، وأنا أراه يستل مسدسه مبتسمًا فى وحشية مخفيًا إياه خلف الحقيبة التى تمسك بها يده الأخرى ، ويصوبه نحوى فى صراحة ووضوح ومباشرة ..

ـ .. بقى أن نمحو الشاهد الوحيد على الجريمة ..

غريزة البقاء ؟!

ربما ، لكنى لم أع إلا أننى ـ بدافع الخوف ـ دفعت الحقيبة التى يمسك بها فى وجهه ثم ..

ـ .. سحقًا !

.. ثم ركضت هاربة ..

أطلقت ساقى للريح ، دون أن أرى الحقيبة التى طارت وحطت لتفرغ محتوياتها من النقود على الأرض ، ودون أن أرى الحنق الذى ارتسم على وجه الرجل وهو يرانى أبتعد ، ويرى النقود تطير فى الهواء ..

ـ .. ألف سحقًا وسحقًا !

لم أره وهو يرفع مسدسه عاليًا ويطلق النار على ظهرى ، فقط سمعت الرصاصة التى أزت أزيزًا خافتًا ، وشعرت بها تخترق عضلات ظهرى فى نفس اللحظة التى سمعت فيها هتاف الرجل الساخط :

ـ .. ماذا ؟! ماذا تفعل أيها الـ ... ؟!

سقطت منكفئة على وجهى ..

رأيت خريطة (القاهرة) السفلية تهوى معى ، قبل أن تغيب عن ناظرى تمامًا ..

تفجرت الدماء من ظهرى ، وسالت بالحياة والموت ..

وقبل أن أغيب عن وعى رأيت الدولارات تطير فى الهواء ..

طيور خضراء تحلق ؛ لتهبط على رءوس السائرين بأمان فى الأسفل ..

اسود المدى أمام عينى ، اللتين أغلقتهما ..

وأنا أبتسم !

* * *

ألوان وخطوط ودوائر ..

وأنا فى رداء أبيض ، أحلق حرة فى فضاء حر ..

أتقلب فى منطقة انعدام الوزن والمعنى ..

ألمس أشياء لا ملمس لها ..

وأتوحد مع التوحد ذاته ..

من بين كل شىء ، أراه واقفًا فى الظل ..

ظل يقف فى الظل ..

ـ يبدو أننى قد فارقت الحياة ..

أقولها وأنا ألمح الهالة الضوئية فوق رأسى ..

وأشعر بالجناحين ينبتان فوق ظهرى ..

ـ ليس بعد ..

صوت بلا صوت ، وملامح بلا ملامح ..

ـ الحلم قال كلمته ..

ـ ليست كل الأحلام تتحقق ..

صوت بلا ملامح ، وملامح بلا صوت ..

أسأله مثل كل المرات :

ـ من أنت ؟!

يجيبنى ـ مثل كل المرات ـ بمزيد من الحيرة :

ـ أنا الحالم والحلم ..

ـ أريد أن أراك ..

ـ ربما أتجلى يومًا فى أحد الأحلام ، أو فى حلم داخل حلم ..

خيبة أمل :

ـ ربما ؟!

وعد لا يتحقق :

ـ ربما ..

ثم يختفى كل شىء فى كل شىء ..

* * *

ـ من ؟! السيدة (ألفت همام) شخصيًا ؟!

هتفت بها فى غير تصديق وأنا أكاد أقفز من فوق سريرى ، لولا تذكرى للجرح الذى ما زال مفتوحًا فى ظهرى ..

دلفت السيدة (ألفت) ـ رئيسة تحرير جريدتى ـ عبر باب الغرفة وعيناها تبتسمان ، ومن خلفها أبى فى معطف الطبيب الذى يزيده تألقًا ووسامة يقول :

ـ زيارة غير متوقعة بالمرة ..

قالت السيدة (ألفت) وهى تضع باقة الزهور بجوارى على السرير :

ـ ابنتى تستحق ما هو أكثر من هذا بكثير ..

ثم صافحتنى وقبلتنى ، بينما وضعت أنا الكتب التى أستذكر فيها جانبًا ، هاشة فى وجهها وقائلة بحب حقيقى :

ـ زيارتك هذه تمثل لى الكثير حقًا يا سيدتى ..

جلست على مقعد بجوارى وهى تقول :

ـ تحقيقك هذه المرة أضاف الكثير لأرقام توزيعنا يا فتاة ..

كأنها تغنى أغنية لـ (عبد الحليم) بصوته ، ليس ما يطربنى فى هذا العالم أكثر من هذا ..

قال أبى وهو ينظف زجاج نظارته :

ـ وأضاف لها رصاصة ستظل فى جسدها إلى الأبد ..

سألته السيدة (ألفت) باهتمام حقيقى :

ـ ألم تستخرجوها ؟!

هز كتفيه وقال معيدًا نظارته إلى موقعها فوق أنفه :

ـ ضرر استخراجها سيكون أكبر من بقائها ، خاصة أن وجودها لن يسبب لها مشكلة فى الوظائف الحيوية !

ووجه حديثه إلىّ قائلاً فى أبوة أفتقدها :

ـ .. (هشام) خطيبك محق : سيقتلك جنونك يومًا ما يا فتاة !

سألتنى السيدة (ألفت) :

ـ أين هو الآن ؟!

أجبتها بابتسامة :

ـ منشغل فى التحقيق مع (حلمى) ، الرجل الذى كاد يقتلنى لولا ...

أكملت هى :

ـ لولا البطل الغامض الذى لم يره أحد ، السيد (س) ..

وتنهدت قبل أن تتابع فى شىء من الشرود :

ـ .. أجل ، حتى المتواجدون فى البرج لحظتها تضاربت أقوالهم ، منهم من قال إنه رأى شخصًا يهجم على (حلمى) هذا قبل أن يطلق الرصاصة ، ومنهم من أنكر وجود شخص كهذا ، ومنهم من أكد ثم عاد ينفى .. ياله من أمر جد محير !

قلت العبارة التى لا أملّ قولها أبدًا :

ـ ربما أن هذا سر تميزه يا سيدتى ..

أدلى أبى بدلوه :

ـ السؤال هو : هل سيظل كذلك إلى الأبد ؟!

قلت وأنا أشرد بدورى :

ـ الجواب هو : من يدرى ؟!

قالت السيدة (ألفت) مغيرة الموضوع :

ـ أراك تذاكرين ..

ـ أجل فالامتحانات على الأبواب ..

وتداركت :

ـ .. لكنى لن أتفرغ لها تمامًا قبل أن أجرى التحقيق المنفرد الذى وعدتك به ..

ـ التحقيق الخاص بصديقتك هذه ؟!

ـ أجل ، من وجهة نظرها ومن وجهة الطب النفسى والميتافيزيقيا وخلافه .. لا بد أن نكشف السر الذى يكمن فى القدرة الخارقة التى تتمتع بها (رشا الدوينى) ..

وعقبت باللقب الذى اخترته لها ؛ فى التحقيق الذى كتبته على سرير المستشفى :

ـ .. (فتاة الأحلام) !

* * *

٨ ـ فتاة اختفت ..

ـ اختفت ؟!

سألت فى استغراب ..

ـ .. ما معنى هذا ؟!

أجابت الأم المكلومة وقد أحال البكاء عينيها إلى كأسين من الدم :

ـ هكذا ، فتحت غرفتها بالأمس ولم أجدها على السرير !

أول ما خطر ببالى أن :

ـ ربما هربت !

وتذكرت أمرًا :

ـ .. لقد تركتها بدون قيود آخر مرة !

جاهدت المرأة لكى تقول :

ـ أجل ، أذكر هذه المرة يوم أن كنت أعد الشاى لك .. لقد

حاولت المسكينة أن تنتحر فى نفس اليوم مرة أخرى فأعدنا ربطها فى السرير مجددًا ..

ثم أردفت وهى تنتهد فى ألم مزق نياط قلبى :

ـ .. حدث هذا بالأمس فقط !

عدت أتحامق وأقول :

ـ لقد هربت بالتأكيد ..

قالت متحاملة على ألمها حتى النهاية :

ـ كيف هذا وقد أضفت إلى نافذتها قضبانًا حديدية حتى لا تستطيع القفز منها ؟!

إنها الحماقة مرة أخرى :

ـ ربما عبر الباب !

ـ إننى أغلق باب غرفتها بالمفتاح قبل أن أنام يوميًا !

هنا فقط أدركت حماقة ما أقول ..

- هل .. هل يمكن أن أرى الغرفة من فضلك ؟!

- بالتأكيد ..

أدخلتنى المرأة ..

ما زالت الغرفة كما هى ، غارقة فى الظلال والموت والكآبة ، الكتب والأدوية والصور المرسومة بالرصاص فوق الجدران ، والسرير غير مرتب بدون (رشا) فوقه ، والقيود القماشية البيضاء مدلاة كالمشانق ..

كيف تبخرت (رشا) من الغرفة ؟!

كيف فعلتها بهذه البساطة ؟!

اقتربت من السرير ورأيت ورقة فوقه ؛ ورقة أخرى مرسومة بالرصاص أيضًا ..

أمسكت بها وحدقت فيها للحظة ..

لقد رسمتها (رشا) ، هذه خطوطها ولمساتها ، وللغرابة لم تكن مثيرة للرعب ..

كانت هناك زهرة جميلة مفرودة الأوراق مرسومة فى المنتصف ، تكاد من دقتها أن تظنها حقيقية ..

وزادنى هذا حيرة فوق حيرة !

* * *

(.. لن أقدم على الانتحار ثانية ، فقد حلمت بنهايتى ولن تكون كذلك أبدًا ..)

* * *

تتبخرين ..

تتسامين ..

تتحولين إلى ضوء يشق المسافات ..

إلى طاقة من نور ..

وأمام بوابة الأحلام تتوقفين ..

تدفعين بيدك الباب ..

وتدخلين ..

تبتسمين ..

ونلقاك مبتسمين ..

نمد إليك أيادينا بزهور جميلة ..

مفرودة الأوراق ..

مرحبًا بك ..

اليوم ينضم واحد جديد إلينا ..

خلف بوابة الأحلام ..

* * *

تمت بحمد الله

شخصية غامضة فى مغامرات وأجواء عجيبة

محمد سليمان عبد المالك

فتاة حالمة

أن ترى الكوارث قبل أن تقع ، ولا يكون فى يدك أن تمنعها ..

أن تعيش نومك بين الدم واللهب والموت والصراخ والرعب ، وأن تعيش نهارك مطاردًا برؤى الليل الكئيب ، منتظرًا ما تعرف يقينًا أنه سيحدث ..

أن تكون منطويًا وسط عالم يصفك بالشؤم ، ويتحاشاك كالطاعون ..

إنه الاحتراق الحقيقى فى أتون المعرفة ، ونيران الحقيقة ..

مغامرات ١١١

الثمن فى مصر ٢٥٠

وما يعادله بالدولار الأمريكى فى سائر الدول العربية والعالم

المؤسسة العربية الحديثة

العدد القادم

(الموت مرة أخرى ..)